
7 غرباء فى المدينة
أحمد الملك
رواية


زورنا في
الفيس بوك
المرتضى
لكتب السودانية
www.facebook.com/sh143a


7 غرباء فى المدينة
أحمد الملك
رواية

سبعة غرباء في المدينة

رواية

أحمد الملك

لوحة الغلاف د. كمال هاشم

الطبعة الثانية.

ويا هدهد لقيت أمك

ترشرش فى السعف من عينها

وتجبر خاطرا المكسور عليك

ينكسر خاطر السعف فى إيدا

يا هدهد قيام

من السما الأول قيام

من السما السابع قيام

وأنزل مسافة تهبشك غنوة وأناولك كاس

ومرت مراكب نوح محملة بالملوك

ركعت على الموج الجنود

من كل جندى تفوح ضحية

ودم مشتت فى الأبد

دسيت جبهتى من السجود

بكى فى مخاض الخوف ولد

إشتبهوا فينى ورا الجبل

شافونى دسيت الهداهد بالزبد.

عاطف خيري.

إهداء:

الى زينب ...

والى روح آسيا العمدة ونعمة أحمد.

حين يكسب الموت ، وتخسر المحبة أحد أعمدتها..

يكسب الموت نساء ناصعات، عشن مثل شموع، تحترق لتصنع الضوء (الحياة) للآخرين. وكن مثل الجبال الشم، التي لا تهزها الرياح و الأعاصير.

في يوم الكارثة ، خرج الرقيب عبد الحي الى المدينة الصغيرة كعادته ليشتري مستلزماته القليلة، من التبغ ودقيق الذرة ولحم السمك المجفف. ثم مر في طريقه لشراء العرقي، قبل أن يعود الى مكان عمله في الحامية الواقعة خارج المدينة. حين يذهب لشراء العرقي يكون في العادة مرتديا ملابسه العسكرية الكاملة. لكن لا أحد يأبه له، ولا يحصل ولا حتى على قطرة خمر إضافية، لقاء حضوره الرسمي، تمازحه بائعة العرقي قائلة في كل مرة: اذا كانت الحكومة تريد أن تغيب عن الوعي فماذا يفعل الناس الآخرون؟

يبتسم الرقيب عبد الحي، ابتسامة حكومية باهتة، يمسحها بسرعة من وجهه حتى لا يعطي انطباعا ان السلطة يمكن ان تمزح مع بائعات الخمور البلدية. لكن لا أحد يخصه بأية معاملة خاصة بوصفه ممثل السلطة، تقول صاحبة الانداية موضحة: الناس يموتون بالجوع والاطفال لا يذهبون للمدرسة وهناك من يريد اقناعنا انه توجد حكومة. هذه مجرد عصابة تعيش على حساب الغلابة، حين تنفد النقود في ايديهم يهاجموننا ويهاجمون التجار الفقراء لنهب نقودهم تحت اسم الضرائب او الزكاة او الغرامات. إنه نهب مسلح لا يختلف كثيرا عما تقوم به عصابات الشفتة، لا فرق سوى أن العصابة تعيش في الجبل والحكومة تعيش في القصر! يذّكرنى حال هذه الحكومة برجال الشرطة الشباب الذين يعيشون في بيت به كل الممنوعات من عرقي ومخدرات، ويجلسون طوال الليل للعب القمار، وحين ينفد الشراب، يتذكروننا ويتنادون للخروج في حملة لتطبيق القانون! لضبط باعة الخمور التي يصادرونها مننا ثم يعودون للشراب ولعب القمار! حتى ينفد الشراب مرة أخرى فيتذكرون أن هناك قانون يجب تطبيقه!

تقول له بائعة العرقي: مهلا يا سعادة الجنرال، سأعطيك طلبك خلال دقائق. يسعده الإنتظار بأكثر مما تبهجه الترقية الإستثنائية التي تغدق بها عليه، بائعة العرقي، دون الحوجة حتى لأية قرار جمهوري. إنتظار الشراب كما كان يقول، جزء من طقوس الاستمتاع بالشراب

نفسه، نفس بهجة عريس ينتظر عروسه التي ستزف إليه في ليلة عمره، نفس بهجة وأشواق طفل في إنتظار أن يحضر له والده لعبة طال أمد إنتظارها.

ترفع النسيم صاحبة الاندابة معه أحيانا كل الحواجز، حتى أنها تحكي له همومها مثل صديق عزيز، رغم أنه لا يرد في معظم الأحيان مخفيا مشاعر تعاطفه خلف تجهمه الرسمي الطيب، لكن النسيم تعرف أنه رجل طيب وانه يعاني مثله مثل البشر، رغم مظاهر السلطة البائسة في ملابسه ووجهه الجاف الذي يتوسطه أنف ضخم ، وحتى لا تبدو مظاهر ضعف سلطته مثل شلوخه التي اختفت تقريبا من وجهه بسبب سوء التغذية والخوف من المجهول. كان يقوم آليا ببرم أطراف شاربه الضخم الذي يشبه شارب ممثل في احدى الحلقات الدينية التلفزيونية. تحذره النسيم مازحة: كن حذرا من لمس شاربك ولا تنس غسل يديك حتى لا تنتقل صبغة الشعر الى فمك! بسبب السن وضخامة الجسم لا تتحرك النسيم كثيرا من كرسيها، كرسي ضخم من الحديد منسوج بحبل كان ملونا لكنه فقد لونه مع مرور السنوات، هي نفسها تبدو في كرسيها بوجهها الضخم كأنها تجلس فيه منذ الأبد، يستحيل تخيل شكلها بعيدا عن الكرسي. مثل حبل الكرسي فقدت هي أيضا بسبب الزمن وعوامل التعرية لون جسمها، حتى أنه بات من المستحيل خاصة في الضوء الخافت تحديد لون جسدها. عيونها كانت بارزة، تبدو وكأنها ستسقط في أي لحظة من وجهها، فيما يخيم شبح إبتسامة قديمة فوق شفتيها المتشققتين اللتان تمسحهما مع جسدها بزيت السمسم لعلاج جفاف وتشقق الجلد. يختلط جسدها في الضوء الخافت، كومة من اللحم والعظم تبرز منها مثل عيني ضفدع مسن، عيونها التي تسبق جسدها الى نقاط الضوء.

العرقي ممنوع حسب قوانين الدولة، لكن الرقيب عبد الحي لا يجد غضاضة في شربه، لم يشغل نفسه بالتفكير كثيرا لم تمنع الحكومة شراب العرقي، لكنه وبمجرد شراب الكأس الأول حين يرخي المساء سدوله بعد أن يبق طوال النهار فريسة لقلق انتظار مغيب الشمس حتى يبدأ الشراب، مجرد أن تلامس شفتيه حموضة الكأس الأول حتى يصل الى يقين أن الحكومة التي تريد حبس مواطنيها طوال اليوم في سجن الوعي، بمشاكله الكثيرة، منصرفات الأطفال وعلاجهم، الفقر والحرب والمجاعة. هي دون شك ليست حكومة صالحة. مثل مريض تجرى له عملية جراحية في بطنه أو قلبه دون تخدير، تريد الحكومة أن تجرب في جسدنا مختلف العمليات الجراحية لتحدد مشكلة الجسد، دون إستخدام تخدير، والسبب كما يعلنون دائما، هو التضخم الناجم بسبب الحصار الاقتصادي الذي تمارسه علينا الدول الكبرى!

مهمة الرقيب عبد الحي هي حراسة المتمردين الذين تلقي وحدات الجيش القبض عليهم، معظم هؤلاء المتمردين يتم القبض عليهم عشوائيا ولا دليل على أنهم بالفعل متمردون، معظمهم أشخاص عبروا بالصدفة في مناطق تكون تحت سيطرة قوات حركة التمرد، أو عثر عليهم قريبا من بعض المناطق الحدودية، التي ينشط فيها المتمردون. البعض يشتبه في أنهم متمردون لمجرد العثور على آثار متوهمة في أجسادهم ناتجة عن حمل البندقية على الكتف لفترة طويلة! يتم إيداع هؤلاء المقبوض عليهم في حراسة عبد الحي، وفي الغالب لا يطول حبسهم اكثر من يوم واحد ولا يكلفون الرقيب عبد الحي سوى وجبة واحدة من غذائه القليل، قبل أن يساقوا في الصباح التالي للإعدام رميا بالرصاص..

إستطاع الرقيب عبد الحي أخيرا توفير مبلغ ضئيل من المال أشترى به جهاز تليفون محمول ليطمئن من وقت لآخر على زوجته وأطفاله . الإشارات ضعيفة بسبب جبلية المنطقة يحتاج أحيانا لتغيير مكانه لتتحسن اشارات الجهاز، حين يصرخ أحيانا وهو يتكلم في الجهاز يهرع بعض جنود الحامية ظنا منهم أن هناك مشكلة ما، ليجدوا الرقيب عبد الحي يصارع شبكة الهاتف الضعيفة بصوت يهز الجبال، لايصال صوته الى زوجته. نصحه أحدهم مازحا: يمكنك في المرة القادمة أن تكلمها في الهاتف! بدلا من أن يعرف العالم كله أنك تشتاق الى زوجتك! كما إقترح أحدهم: لو ذهبت الى زوجتك مشيا على الأقدام لن تبذل نصف الجهد الذي تبذله في صراخك في الهاتف! وإقترح صديق آخر: هناك فتيات إثيوبيات جميلات في وسط المدينة، هيا معنا، حين تذهب معنا لن تحتاج لتصرخ هكذا لعدة أشهر! يوجد ما يكفي من الحب الصامت هناك. تستعيد شبابك وصوتك الذي يدوي طوال الليل بين الجبال.

حصيلة المرة الأخيرة كانت متمردا واحدا، كان يبدو مواطنا صالحا أكثر حتى ممن ألقوا القبض عليه.

جلس الرقيب عبد الحي على حصير أمام الزنزانة التي يقبع المتمرد داخلها. أحضر جركان العرقي وصحنا من البلاستيك الأحمر مملوء حتى وجهه بفتة الفول، شرب قليلا من العرقي، لا يذكر متى شرب شرابا بمثل هذا المستوى الجيد، لو أنه أشعل سيجارة ستشتعل دواخله من فرط نقاء العرقي، ضحك حين تذكر قصة رجل كان يهدد ستات العرقي يوم كسوف الشمس بالويل والثبور، ويقول لهن أن غضب السماء وانكساف الشمس بسبب غشهن للزبائن واضافة الماء للعرقي!

بعد الكأس الأول وبفعل تأثير الخمر الجيدة شعر بحاجته لتقديم معروف لشخص ما، برغبة لا تقاوم في حمل رسالة سلام يطوف بها العالم كله. يذهب الى كل مكان يموت فيه الناس بسبب الحروب والأوبئة، نظر الى ملابسه العسكرية، وحذائه القديم، وخمّن أن أحدا لن يصدقه! وربما يزفه الأطفال في الأزقة مثل معتوه متجول، إستعرض حياة كل الانبياء الذين يعرفهم ولم يتذكر نبيا واحدا كان يعمل عسكريا! لا يمكن لمن إمتهن حياة العسكر وقتل الناس دون حتى أن يسأل عن سبب القتل أن يشغل وظائف هامة بعد ذلك. يمكنه أن يعمل في بيع الحبوب بالمفرق في السوق، أو إفتتاح مطعم صغير لبيع الفول، يعرف رجلا كان يعمل عسكريا وحين تقاعد إفتتح بالمبلغ الذي حصل عليه كمكافأة على قتل الناس دون سؤال، مطعما لبيع أطعمة من لحم الجمل! يقولون أن لحم الجمل شهي وأنه يطيل العمر، فكّر هل أعطي ذلك الرجل المكافأة لأنه قتل الناس أم لأنه لم يسأل لم يجب عليه قتلهم! صرف النظر مؤقتا عن فكرة نبي السلام، مستعيضا عنها بمبادرة محبة تجاه السجين الذي سيفارق الحياة خلال ساعات قليلة. ذهب الى قطيته القريبة وبحث عن شئ ما، عثر على كوب زجاجي متسخ، به آثار سائل متيبس ربما كان قهوة أو شاي أو أية شئ آخر، سكب في الكوب دون ان يغسله بعض العرقي وناوله للأسير من خلال قضبان الباب قائلا في سره: سيموت غدا فما المانع أن يبتهج للمرة الأخيرة في حياته، ربما ان بقي سكرانا حتى الصباح لا يشعر ولا حتى بطلقات الرصاص.

شرب الأسير الكوب دفعة واحدة، وشكر عبد الحي، قال عبد الحي: هل أنت جائع ؟ يمكنني أن أعطيك بعض فتة الفول، قال الأسير، أريد كوبا آخر من هذا العرقي القوي، من المحزن ألا تكتشف وجود عرقي جيد مثله الا في آخر يوم في حياتك!.

لبث الرقيب عبد الحي برهة يفكر حين سمع قول الأسير، لم يعرف هل يبكي أم يضحك. كان يشعر بطيبة غير عادية تدفقت الى دواخله، كأن العرقي الجيد كشف الغطاء عن حقيقة نفسه العاشقة للبشر، والمحبة للسلام. لو كان يملك أية سلطة في تلك اللحظة لأصدر عفوا عن السجين وعن كل سجناء العالم. لكن لأن عين طيبة نفسه كانت بصيرة، ويد سلطته كانت قصيرة جدا حتى أنه لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. فقد إكتفى بفكرة تخفيف أحزان السجين في ساعاته الأخيرة.

رن جرس تليفونه الجوال، فشرب بسرعة كأسه بعد أن اعطى السجين كأسا اخرى. كانت زوجته، يا للكارثة، صرخ بجزع: هل حدث شئ؟ ضحكت المرأة وقالت لا شئ، أحضر الولد

رصيدا للموبايل وقبل أن ينفد فكرنا أن نسلم عليك، لأن الشبكة تكون قوية ليلا كما يقول الناس.

سألها عبد الحي عن الاحوال ثم سأل عن جار كان مريضا قبل فترة حين زار القرية عرف أنه أجرى جراحة كاد يموت بعدها بسبب جرعة مخدر زائدة. ضحك عبد الحي عليه وقال له: لماذا توقفت عن الشراب؟ لو كنت تشرب مثلنا العرقي ،لما شعرت أساسا بالمخدر. .

بعد ان انتهت المكالمة، قال الأسير: أنت تعرف عوض عباس اذن؟ هل عثر على إبنه أم لا يزال مفقودا؟

يا للكارثة قال عبد الحي في سره: لدينا أصدقاء مشتركين أيضا. ثم رفع صوته، لا يزال الولد مفقودا، يقال انه هرب الى الحبشة وتزوج بفتاة هناك. وبعض الناس يقولون انه قبض عليه بواسطة الجيش لاداء الخدمة العسكرية ومات في معارك الجنوب. لم يجد عبد الحي بدا من افشاء بعض الأسرار الزوجية ما دام محدثه سيفارق الحياة غدا. وستقبر أسراره معه الى الأبد، أشعل سيجارة القمشة ومد للسجين كيس التبغ والورق ليصنع بنفسه سيجارة وقال:

عوض رجل طيب لكن يقال ان زوجته عابثة، يبدو أن الحياة كانت صعبة حين سافر عوض قبل سنوات وانقطعت أخباره وكان لابد لها من تدبير أكل لصغارها. الحياة قاسية، وحين يجوع الانسان لا ينظر كثيرا الى مصدر أكل أطفاله. هو نفسه راجت أخبار أنه قبض عليه وهو يقوم بتهريب أسلحة من الحبشة. الناس كلهم يسرقون، وهو لم يسرق شيئا لكن القانون أعمى لا يعرف الرحمة.

قال الأسير: القانون أعمى دائما لكن حين يمر الضعفاء من أمامه يفتح عينيه جيدا!

عرف عبد الحي أن الأسير قال كلاما مهما، لكنه كان قد وصل نقطة اللاعودة في فهم أية شئ منطقي، يمكنه الآن أن يضحك أو يبكي دون سبب، ربما كان هناك سبب ما في دواخله يجعله يبدو كمن يبكي دون سبب، لكن رسالة المحبة التي إكتشف أنه يحملها تجاه العالم كانت تفرض عليه أن يضحك حتى لو سبه شخص ما أو ذكّره بتفاهة حياته التي لا يجد لها معنى او طعما خصوصا في ليالي الخريف حين يجبره المطر على الانغلاق داخل القطية، ينام داخل سرير موضوع فوق علب حديدية مملوءة بالماء حتى لا تتسلل العقارب الى فراشه وتفسد عليه متعة شراب الليلة المنصرمة. حين يجبره الشعور باليأس من العالم

الغارق في المشاكل والمطر على الانغلاق داخل ذاته، حتى أنه يمضي جزءا من الليل يفتش داخل ذاكرته، يعثر على كل شئ الا روحه الضائعة في المتاهة، يعثر على عناكب سامة، أحذية قديمة منذ طفولته الباكرة، وجوه لأشخاص لم يكن متأكدا إن كان إلتقاهم يوما في العالم الذي يعرف أم في عوالم أخرى، جنود ماتوا في حروب عبثية شنتها السلطة ضد المدنيين في كل مكان بدعوى وجود متمردين متخفين وسط المدنيين في بعض القرى النائية. قرى بأكملها احرقت فوق رؤوس سكانها لمجرد الاشتباه في وجود متمرد واحد.

خشي أن يتغير مزاجه وتفسد متعته إن فكر كثيرا في كلام الأسير، وحاول وضعه في سياق اللحظة نفسها التي كان الأسير جالسا فيها أرضا خلف قضبان الباب وفي يده كوب الشراب. اللحظة نفسها التي يبذل جهدا لينساها، يخدع نفسه أحيانا حتى حين لا يكون الشراب جيدا ومساعدا على النسيان، أنه ينساها تماما كأنه لا يراها تقف أمام عينيه من داخل ضوضاء حنين الذاكرة!

شرب عبد الحي كأسا اخرى وأعطى الاسير كأسا، ترنح عبد الحي وهو يعود مرة اخرى للقطية، أحضر صحنا متسخا، به بقايا طحالب او فطريات خضراء، مسح الصحن بيده، كان لا يزال متسخا قليلا، لكن الرجل ميت على كل حال.كما أن العرقي نفسه كفيل بقتل أية جراثيم تدخل الى معدة الأسير. وضع له قليلا من فتة الفول ثم دفع له الصحن من بين القضبان.بقي ساهما لبرهة يحدق في السماء المرصعة بالنجوم ثم رفع صوته قليلا بالغناء ولأنه لم يكن يحفظ سوى كلمات قليلة من الأغنية بدا كأنه يعارك في نفسه.

لكنه جاهد ليغني، شعر أن من واجبه ان يخفف على هذا الرجل الميت ويسعده في ساعاته الأخيرة بما يخفف عليه رهبة مواجهة فرقة الإعدام المتعجلة. التي تطلق من النار على الجدار أكثر مما تطلق على جسد الأسير، بسبب العجلة والاستهتار في حضرة الموت. في أحيان كثيرة يقومون بدفن الأشخاص الذين ينفذون فيهم أحكام الاعدام قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. لا أحد يقوم بالكشف على الميت للتأكد أنه فارق الحياة. تذكر جزءا من مقاطع أغنية يقول مطلعها: ما بخاف من شئ برضي صابر المقدر لابد يكون. ردد المقطع عدة مرات لأنه إكتشف أنه لم يكن يتذكر غيره، أو لأنه شعر بأن كلمات الأغنية التي تمجد الصبر والامتثال للقدر هي الأغنية الأفضل لشخص محتضر ينتظر الموت مبتهجا بعرقي جيد.

قبل سنوات طويلة شارك بالغناء مع فرقة مدرسية كان صوته جميلا كما قال له عدد من زملائه ومدرسيه. لكن مشكلته انه لا يستطيع حفظ كلمات الاغاني! يحفظ اللحن فقط ويردد أية كلام. أجبره المدرس المشرف على احتفال مدرسي على حمل ورقة ليقرأ منها كلمات الاغنية حين فشل في جعله يحفظ الاغنية. قال له المدرس مازحا: سنساعدك هذه المرة على الغش! لم يهتم بتطوير موهبته آنذاك فقد كان مفتونا بالبواخر النهرية، وكان يخرج مع بعض أقرانه لمشاهدتها وهي تمخر عباب النيل الأبيض في لحظات الغروب، حتى تختفي أنوارها البعيدة في ظلام موسم الخريف القابع خلف غابات السافنا البستانية. مخلفة لديه شعورا بالحزن والفقد. كان أقصى أحلامه انذاك ان يعمل قبطانا في إحدى هذه السفن.

ما بخاف من شئ برضي صابر المقدر لابد يكون. علّق الأسير بأن صوت عبد الحي جميل جدا. وقال مازحا وهو يضحك: خسارة أن تدفن هذا الصوت الجميل في غباء العسكر!

لم يسمع عبد الحي كلام الأسير كله، لكنه إنتبه لضحكة الأسيرالتي بقيت تجلجل في الفراغ لبرهة طويلة قبل أن يبتلعها الليل والسكون. وأنتبه لطرافة الموقف. كان يحاول تعزية الأسير وتخفيف وقع الموت القادم اليه. فتحول الى واعظ غنائي سكران. فيما الميت نفسه كان يستغرق في الضحك والبهجة! وكأنه ذاهب بعد ساعات قليلة الى جنة حلم كثيرا بالذهاب اليها، ولن يواجه جحيم فرقة الإعدام المتعجلة. حيث لن يستغرق الأمر سوى ثوان قليلة يتفرقون بعدها لمطاردة حياتهم اليومية، دون أية تغيير في مزاجهم، أو أية شعور بالذنب، لا يتبدل أية شئ فيهم، لا حزن ولا فرح. لا يسأل احدهم حتى ما الذي فعلناه اليوم؟ ولماذا فعلنا ذلك؟ ربما لهذا السبب يحتاج الانسان للحكومة. لتفكر نيابة عنه، وحين ينفذ أوامرها، تكفيه فكرة أنه ينفذ الأوامر فقط أية شعور بالذنب من عواقب أفعاله!

بل أن الميت ساعده، غنى معه وساعده ليتذكر بقية كلمات الأغنية الغائمة في ذاكرته. وحين يتعسر عليه الأداء بسبب وطأة الخمر على ذاكرته، كان الأسير يتسلم المبادرة ويقود الأغنية من خلف القضبان حتى ضج العالم من حولهما بسحر الغناء، كان مشهدا نادرا لغناء الجلاد والضحية دون استخدام السلاح. لكن الاثنان كانا يعرفان انهما ينطلقان من نفس الموقع حتى إن كان يجب أن يمثّل أحدهما دور القاتل والآخر دور الضحية. أشتكى عبد الحي من كل شئ، من الجيش وضعف المرتبات والغلاء، من عجزه عن دفع رسوم المدرسة لولده. كان الأسير يعزيه ويحاول أن يخفف عنه مصائب الحياة.

لكن عبد الحي رغم شعوره بالمحبة تجاه الأسير ورغبته في مساعدته، لم يكن يستمع الى نصائحه بجدية، ليس لأنه لم يحمل نصائح المحتضر محمل الجد، ولكن لأنه لم يعتد على ذلك. إعترف بعد برهة صمت دون أدنى خوف لثقته ان الشاهد الوحيد على إعترافه سيختفي من الوجود خلال ساعات قليلة:

لو إستمر الحال هكذا سيكون أشرف لي أن أنضم الى إحدى المجموعات المتمردة على الأقل ربما أحارب من أجل قضية! أو أفعل مثل عوض عباس أقوم بسرقة السلاح وتهريبه! ثم أعلن دون مجد: نتعرض كل يوم للموت ولا نجد حتى ما يقيم الأود أنا وأسرتي، ذات مرة كنت في حاجة لبعض المال لأرسله لزوجتى لأن أحد أولادي كان مريضا، سرقت بندقية أحد الضباط وبعتها لأحد تجار السلاح! لم يكترث ولا حتى لإحتمال أن يكون هناك من يسترق السمع وأوضح: هذه منطقة حدودية، يمكنك فيها شراء أو بيع أي شئ! والسلاح يباع ويصل بسرعة الى المتمردين وعصابات التهريب وعصابات قطع الطريق! لو أنك سرقت دبابة تستطيع بيعها في دقائق هنا! لم يكتف بالإعتراف على نفسه فقط، تبرع بالإعتراف على آخرين أيضا:

ذهبت زوجتى قبل أيام الى المستشفي لزيارة شقيقها المصاب بفشل كلوي، يجب أن يذهب لعمل غسيل للكلى كل بضعة أيام، يكلف ذلك مالا كثيرا حتى أنه باع بيتا كان يملكه ليستطيع تغطية تكاليف علاجه وعاد للعيش مع والدته في قطية صغيرة. رغم ذلك لا توجد محاليل لعمل الغسيل الكلوي! يقولون الدولة مفلسة لا تستطيع توفير العملات الصعبة لشراء الدواء، وفي كل صباح تصل الى الحامية معدات عسكرية جديدة، هل وصلتهم هدايا من تجار سلاح من المحسنين؟ يركب مدير جهاز الأمن كل فترة سيارة فخمة تكلف الملايين بينما المستشفى لا توجد به عربة لإسعاف المرضى او النساء اللائي يعانين مصاعب في الولادة. يموت الكثيرون بسبب الجوع والاهمال ومن يهتم لذلك؟ يجنى الضباط ورجال الحكومة هنا الملايين من بيع الأسلحة عبر الحدود أو حتى تهريب أية شئ مقابل المال.

لم يبتهج الأسير كثيرا بالإعترافات الصاعقة، واصل حكايته وبنفس نبرة نصائحه الأبوية الطيبة: كنا زملاء أنا وعوض قبل سنوات طويلة، لم يكن قد أحضر زوجته آنذاك من قريتهم، عملنا سويا كعمال في مجال البناء، كان عوض يشرب كثيرا حتى وهو جالس يبني فوق الحائط العالي وكان مشهورا بخفة يده وسرعتها في العمل، كان أحد العمال يلقي له بقطعة طوب يضع قليلا من الطين ويثبتها بسرعة ويمد يده ليتلقى طوبة أخرى، وكل بضع دقائق كان يشير بيده إشارة مختلفة يفهمها العامل فيلقي له بزجاجة الخمر بدلا عن قطعة

الطوب، كان عوض يأخذ منها جرعة واحدة ويعيدها للعامل ثم يمد يده ليتلقى قطعة طوب ويواصل البناء.

يبدو أنه سكر ذات مرة، لم يلاحظ العامل ذلك، حين ألقى إليه بقطعة الطوب فوجئ بقطعة الطوب تعود اليه وخلفها عوض عباس!

حاول الرقيب عبد الحي أن يضحك لطرافة الموقف لكنه لم يفلح بسبب تمكن السكر منه إلا في إخراج فحيح خفيف مثل أفعى، أدخل يده في صحن الفول وإستسلم الى النوم مباشرة، تاركا يده في طبق الفول وكأنه يؤدي القسم لمنصب ما، حتى الفجر.

لحسن الحظ أن الرقيب عبد الحي أخلد للنوم وظهره للأسير مما سمح له أن يمد يده ويبحث داخل جيوبه حتى عثر على مفتاح الزنزانة. فتح الباب بهدوء، وسحب قدميه، كان الأسير يشعر بالأسف لأنه يعرف أنه سيدخل الرقيب عبد الحي في ورطة حين يستيقظ صباحا ويكتشف هروب الأسير، لكن الحياة كانت تستحق مجازفة الهرب رغم رداءة العرقي وسعار الأسعار وجنون الحكومة.

إستيقظ عبد الحي فجرا، كان العالم لا يزال غارقا في الظلام، رغم أن بعض خيوط ضوء الفجر الفضية بدأت تهبط من أعالي الجبال المحيطة وتذوب في الظلام. كان لا يزال يشعر بقليل من السعادة التي أسبغها عليه عرقي جيد، ثم تمطى ولاحظ أن صحن الفول لم ينقص سوى الجزء القليل الذي أعطاه للأسير، نظر الى اعلى كانه يبحث عن شئ في السماء، رأى نور الفجر القادم من أعلى الجبال، ورأى النجوم تبدأ في الذوبان في طوفان الفضة. أنتابت جسده رعشة من شعور غريب أن العالم كله تغير فجأة، وأنه حين تشرق الشمس لن يعرف شيئا من العالم الجديد من حوله، كأنه الناجي الوحيد من طوفان دمّر العالم. أدار عندها جسده لينظر للأسير، فرك عينيه ليتأكد أنه لم يكن يحلم، كان الباب مفتوحا ولا أثر للأسير!

كان المساء يرخي سدوله حين طرق الرقيب عبد الحي باب إنداية النسيم، البيت يقع ليس بعيدا عن الحامية العسكرية في منطقة قريبة من مجرى نهر الدندر، كان الطقس لطيفا والشوارع تعبق برائحة نوار أشجار السنط. معظم رواد البيت يعرفونه، لكن المكان تقصده دائما أعداد كبيرة من الغرباء، عابرون في طريقهم الى مدن الوسط، عمال حصاد، غرباء دون هدف ودون وجهة محددة ، نازحون من حروب لا تنتهي بإمتداد القارة. كان هناك فتى يعزف لحنا حزينا على الوازا عرف عبد الحي أن الصبي من قبيلة البرتا. إنقبض قلبه قليلا حين طفت على سطح ذاكرته فجأة مشاهد من صور طفولته، وإندلعت معها في حمى التذكر، رائحة موسم حصاد غابر مخلوطة برائحة مشروب الباصا، رأى نفسه يرتدي ملابسا مزركشة ويرقص الهوكي، على أنغام أغاني الحصاد. وشاهد نفسه نائما جوار جدته تهدهده نقرات المطر فوق سقف القطية وتتسرب الى صحارى أحلامه، دوامات غناء متقطع لطائر حزين يعبر فوق موج الصمت في ليالي موسم الجفاف، الذي تقطعه أصوات الغرباء الذين يعبرون في ضوء القمر، وصوت قطرات الماء التي تسقط كل بضع دقائق من زير الماء المملوء في الفناء الملاصق للقطية. كان قد عاش جزءا من طفولته مع جدته في تلك المنطقة في بلدة صغيرة تنام على سفح جبل يكتسي معظم شهور السنة بشجيرات شوكية خضراء.

كان لا يزال يشعر بأن تلك كانت أسعد فترات حياته، مع حنان جدة عوضته عن حنان والدته التي ماتت مبكرا أثناء وضعها لطفلة ماتت ايضا اثناء الولادة.

بعد ان انجلى غبار اللحن الذي كان الفتى يعزفه، تبددت السحب التي كانت تحجب الرؤية داخل فناء البيت، لاحظ عبد الحي وجود بعض معارفه، وحتى تحضر له إحدى فتيات النسيم حصته من العرقي، قام بإحصاء الموجودين فاكتشف وجود سبعة غرباء بجانب الفتى،

مارس بهدوء هوايته في محاولة التعرف الى الغرباء يحاول من تقاطيع وجوههم وطريقة كلامهم ان يحدد من أين جاءوا، بسبب ضوء المصباح الخافت، لم تكن الوجوه واضحة، كل شئ يبدو ذائبا في الضوء الخافت ورائحة نوار شجر السنط، تعرّف فقط على واحد منهم، لم يصدق عينيه في البداية: هذا الرجل كنت أؤدي له التحية العسكرية! لم يتذكر أين رآه لكنه يتذكر جيدا انه قبل سنوات أدى له التحية العسكرية، مؤكد انه كان ضابطا بالجيش، ربما احيل للتقاعد او شارك في انقلاب عسكري وحصل على عفو رئاسي انقذه من الموت، عصر ذاكرته حتى انفجرت في وجهه أمسيات خريف كئيب وأصوات باعة جوالة في مدينة بعيدة على حافة الصحراء لا يسمع فيها في صمت أيام الشتاء سوى صوت الريح الراحلة فوق موج السنابل، وصوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء يتهادى صوته فوق كثبان الرمال وأحراش شجيرات الطندب والحلفاء. ونسوة يفترشن الأرض في سوق خريفية غارقة في الرذاذ ورائحة روث الأبقار، ورأى جدته تبرز ببطء في عتمة الذاكرة، تحيط بحواف جسدها خيوط ضوء الضحى الباهت، رآها تقود صبيا نحيلا يحمل جوالا من الخيش تبرز فوقه مثل جذور شجرة عتيقة، حبل نبات الحلفاء الذي تستخدمه جدته لتخيط به الجوال كلما تمزق جزء منه. إنه أنا، قال مبتسما حين رأى صورته، مع جدته في الرحلة اليومية الى المزارع بحثا عن غذاء لثروتهم القليلة من الماعز والضأن. ورأي قافلة من الحجاج يرتدون ملابس خضراء ويحملون الدفوف في طريقهم الى ضريح أحد الاولياء الصالحين للاحتفال بعيد مولده. ورأى مظاهرة غاضبة تكتسح الشارع الرئيسي في المدينة من على البعد تطالب بإنهاء حكم العسكر. إنتبه حين نحى بيده جانبا الصور التي كاتنت تتدافع من ذاكرته حتى اتضحت الصورة أمامه، فرأى الجنرال يحمل كأس مشروب المريسة ويجوب الفناء في خطوات تفتيشية كأنه يتفقد حرس الشرف. رأى الرجال السبعة الذين سيقود القدر أحدهم بعد ساعات ليواجه كتيبة الاعدام دونما ذنب جناه. أحدهم رجل مسن أمضى نصف عمره يفتش حرس الشرف ثم لاذ بالفرار حين نجح أحد الانقلابات العسكرية الكثيرة التي كانت تدبر ضد نظامه. ولأن النظام الجديد في بلده تورط في دعم بعض الحركات المتمردة فقد وجد هو دائما من يستقبله في متاهته بإعتباره الرئيس الشرعي المنتخب، رغم أن نظامه إشتهر بتزوير الانتخابات، وكانت صناديق الانتخابات التي يشرف عليها المراقبون الدوليون يتم إستبدالها دائما بصناديق محشوة ببطاقات مؤيدة له. الآخر رجل في مقتبل العمر، يبدو من مظهره مثل أحد أصحاب مشاريع الزراعة المطرية. ربما نجح موسمه الزراعي وهو مسافر للراحة بعد نهاية الموسم. ثم رأى معه في نفس حلقة الشراب شابين صغيرين، إستبعد أن يكون الشابّان أبنائه، ربما يكونا من أقربائه وجاءا لزيارة المنطقة فأحضرهما الرجل بعد نهاية الموسم الزراعي ليتعرفا على المنطقة. إعتقد في البداية انهما من عمال

الحصاد، لكنه لاحظ عليهما سيماء أبناء المدينة، رغم مظهر ملابسهما الفقيرة . فدهش لوجودهما في هذه المنطقة النائية التي ينشط فيها رجال الجيش في القبض على الشباب وإرسالهم لمناطق الحرب. رأى شبح رجل ضخم يجلس في ركن مظلم في مؤخرة الفناء، لم يجد فرصة ليخمن المنطقة التي ينتمي اليها الرجل وطبيعة عمله، كان الرجل يعطي وجهه للجدار، وكان هو نفسه يكاد يبدو مع الضوء الخفيف وظلال أشباح الحضور فوقه، كأنه جزء من الجدار لولا الجلباب الأبيض المتسخ الذي يحيط بجسده الضخم الذي لا ينقصه سوى خرطوم وذيل قصير، ليبدو مثل أحد تلك الأفيال السارحة في حديقة الدندر. في الركن الآخر من الفناء رأى أيضا شابا صغيرا تبدو عليه وعثاء سفر بعيد، رغم الضوء الخافت لاحظ الرقيب عبد الحي إمارات الحزن في وجه الفتى الهارب من أتون الحرب البعيدة. دون أن يفهم أن الفتى كان يعيش ضياعه الثاني بسبب فقده للمزمار الذي ظل يتشبس به طوال سنوات كأثر وحيد لطفولته السعيدة السالفة، وذكرى والديه وقريتهم التي أحرقتها الميليشيات التابعة للحكومة. حين كانت ترتفع بين الفينة والاخرى نغمة من بوق الوازا الذي يحمله الفتى الآخر، كان الصبي الحزين يشعر ببعض الراحة. يشعر بنغمات البوق المقدس الذي تمت مباركته في مهرجان الحصاد الأخير، تبدد سحب الحزن في قلبه وتعيد نبض الحياة الى العالم من حوله. دهش لأن مزمار الصبي كان كبيرا جدا بطول الفتى نفسه تقريبا. فجأة سمع الصبي صوتا مألوفا: صوت دقات الساعة! الساعة التي دفنت تحت ركام البيت المحروق قبل أن يعطيها والده له في أول يوم لذهابه للمدرسة. إستشعر خطرا خفيا مجرد سماعه لدقات الساعة. كأنه يرى طائر النار قادما يخترق الفيافي لينثر الموت والخراب. قال للفتاة التي أحضرت له كوبا من مشروب المريسة: هل توجد حرب هنا؟ إنني أشم رائحة الموت!

صعقت أسمرينا، الفتاة الجميلة، لذكر الموت، لكنها رقّت لحال الشاب الصغير، كان يبدو وحيدا حتى وإن عاش وسط ملايين البشر، علامات السفر في وجهه وملابسه كانت توحي بأنه مسافر الى الأبد، الى عالم لا يمكن التنبؤ به أو توصيفه، حتى في أكثر حكايات الجدّات خيالا. شرح لها أن مزماره كان كفيلا بتبديد رائحة الموت في المكان، لأن نغمات مزماره، كانت تعطي إحساسا بزمان مشبع بالفرح والحياة، لا تعيد نغمات مزماره فقط بهائمه التائهة في المرعى البعيد، بل تعيد الحياة الى أكثر وقائع حياته ضياعا في النسيان. وحكى لها حين رآها تترك عملها وتجلس بجانبه، الهجوم الذي تعرض له البص الذي إستقله من مدينته البعيدة في الغرب، وكيف أنهم أخذوا كل شئ، بل أنهم قتلوا أمام عينيه، رجلا رفض تسليمهم المال الذي كان يحمله، وبعد أن قتلوه إكتشفوا أنه لم يكن يحمل سوى مبلغ قليل

من المال لا يكفي ولا حتى لشراء قطعة خبز! أما هو فقد أعطاهم حقيبته الصغيرة والنقود القليلة التي تبقت معه، طلب من الرجل المسلح أن يسمح له بالاحتفاظ بمزماره الذي وضعه في حقيبة ملابسه لكن الرجل المسلّح لم يكترث له.

أحضرت له أسمرينا مزمارا كان أحد زوّار الإنداية قد تركه قبل أشهر، كان المزمار جميلا، صنع من خشب أحمر جميل وتم تزيينه بخطوط ذهبية ، وضعه آدم في فمه وبدأ يعزف عليه. إنسابت داخل الإنداية موسيقى هادئة كانت تبدو كأن الرياح الليلية التي هبت مع إنسياب نغمات المزمار، تدفع بها من عوالم أخرى، رفع رواد الإنداية رؤوسهم لرؤية من أين ينساب هذا اللحن السحري، حتى الرقيب عبد الحي الذي كان على وشك مغادرة البيت، توقف قبل أن يغلق الباب ونظر بإتجاه اللحن المنساب في الهواء. كأنه يتسلق الليل مثل فروع شجرة لبلاب. حتى الجنرال توقف عن إستعراض حرس الشرف في ذاكرته، ووقف يحدق في الفراغ، كأنه يبحث عن اللحن الشارد بين النجوم، دون أن يفطن الى ان اللحن كان يتدفق قريبا حتى من وجهه. لكنه لم يشعر ولا حتى أنه كان ينظر من خلال ثقب في ذاكرته، نفس الثقب الذي فتحته نغمات المزمار الساحرة، الى مركبة تتهادى في عمق الليل، وفي جوفها تجلس ملكة عرش أشجار البونسيانا، مع فرقتها الموسيقية، كانت المركبة تسابق الزمن الراكد في مستنقعات الملاريا والنسيان الى خارج نطاق أحلامه في إستعادة عرشه الضائع عبر سيادة مطلقة على عرش الملكة البونسيانا.

وضع آدم المزمار جانبا وقال، إنه رائع، لكنه لا يستطيع تبديد رائحة الموت مثل مزماري!

فكر الرقيب عبد الحي أن يبقى قليلا في الانداية ليستمتع بالشراب وسط الغرباء ويستمع للنغمات الساحرة التي يعزفها الفتى، لكنه تذكر أن لديه أسير سيقوم بحراسته هذه الليلة وتسليمه لفريق الاعدام فجرا. أحضرت إحدى الفتيات جركان العرقي، نادته النسيم ودعته ليجلس قليلا ويتذوق كوبا من شراب المريسة، تذكر الأسير لكنه لم يتمكن من رفض دعوة النسيم، النسيم كانت بالنسبة له أهم حتى من قائد الحامية، القائد يستطيع تجريده من رتبته، إحالته للتحقيق أو طرده من الخدمة، أما النسيم فكانت تملك إمكان طرده من الحياة. ورغم أنه كان يحاول ان يحتفظ لنفسه بمسافة من كل بائعات الشراب، كأنه يريد إستعادة هيبته الحكومية التي يغرقها كل يوم في وحل شرائه العلني للشراب، بل لقضائه أحيانا لنهار كامل في الانداية حين لا يكون لديه عمل ما، وقد شوهد عدة مرات وهو يصلح باب البيت الرئيسي، الذي تكره النسيم ان يبقى مفتوحا لأية سبب، بسبب خوفها القديم من الكلاب الضالة ورجال الشرطة. تداعبه النسيم وهو منهمك في إصلاح باب الإنداية: يستطيع رجال

الجيش القيام بعمل مفيد إذن! لماذا يقول الناس اذن انكم لا تنفعون الا في القتل وشن الحروب وتدبير الانقلابات؟ تبدو له الأسئلة غريبة، لم يفكر فيها من قبل! يندهش مثلما يندهش مزارع حين يواجه بسؤال: لماذا تعمل مزارعا!

كان الرقيب عبد الحي يجد نفسه أحيانا يجلس لوحده يعب الشراب من وعاء المريسة المجاني الذي تضعه الفتيات في الفناء للسكارى الفقراء، وكنوع من الدعاية خاصة في أيام الأسواق، كان الرقيب متسولا رسميا للبهجة. حين تلعب الخمر المجانية برأسه، كان حرجه الرسمي يزول أحيانا فيحكي للنسيم بعض حكايات أمجاده الغابرة في الجيش، ينسب لنفسه بطولات وهمية، دائما يرتكب أحد غيره خطأ ما، فيفشل الانقلاب العسكري! تضحك النسيم وتقول: كيف يفشل الانقلاب وتكون حيا أمامي الآن؟ هل نفذت الذخيرة فجأة حين حان وقت إعدامك؟ يرتبك الرقيب عبد الحي ويقول:

صدر عفو رئاسي عني بمناسبة عيد الثورة!

تفرك النسيم ضفائر شعرها المصبوغة بالحناء، وتقول: أي ثورة تقصد؟ أشارت الى جهاز الراديو القديم، الذي فقد لونه مثل حبال كرسيها، وقالت، ثورات كثيرة إنطلقت في هذا الراديو، لكننا لم نر شيئا يتحسن أبدا، كلهم يلقون باللوم على من سبقهم، ثم تدور نفس الاسطوانة! ولا خاسر سوانا، نحن الوحيدون الذين لا نشارك في لعبة الكراسي هذه! لكننا نشارك في دفع تكاليفها مع كل المساكين الآخرين!

ترسله النسيم ليحضر لها الماء أو ليفتح الباب لعابر سبيل يأتي مبكرا. حين تخرج جميع فتياتها لقضاء حوائج البيت وشراء مستلزمات عمل المريسة لليوم التالي، يجلس في حضرتها، كأنه في حضرة أمه التي لم يرها قط. أمه الثانية التي تمنحه حليب الحياة. أحيانا كان يعد لها القهوة أو الشاي، حين تسأله ان كان بإمكانه عمل شئ ما يقول: استطيع عمل كل شئ، أنا عسكري! يردد العبارة عدة مرات كأنما ليقنع نفسه أنه بالفعل متميز كعسكري عن كل الناس الاخرين، رغم أن النسيم تقول له أن كل مشاكل هذه البلد بسبب العسكر، يفسدون كل من يقترب منهم، حتى المدنيين الذين درّبهم الانجليز على الخدمة بإخلاص في دواوين الحكومة، أفسدهم العسكر. يعد القهوة ويجلس بجانب النسيم يشرب كوبه، يبدو هو ممتنا لها أكثر من شعورها بالارتياح لوجوده ولمساعداته رغم أنه (كممثل للسلطة) مفروض ان يكون ألد أعدائها. في السابق كان سليمان العسكري دائما يبقى بجوارها حين تذهب فتياتها لقضاء اغراضهن في المدينة قبل ان تختطفه الزينة. سليمان الوسيم صاحب

الفم الدقيق والعيون الواسعة والجسم النحيل، يرتدي دائما سروالا لونه أخضر من قماش التيل السميك، وقميصا من نفس اللون. لا ينقصه سوى حزام عريض وحذاء عسكري أسود ليصبح شبيها بأحد جنود الحامية العسكرية، ربما كان ذلك سببا لإطلاق إسم العسكري عليه. المؤكد أنه كان يتحاشى تماما ذكر إسم والده. إختبأ خلف إسمه الجديد، ووجهه النحيل الوسيم تاركا إسمه الحقيقي يختفي في أعاصير عقله الباطن. حيث يختفي كل شئ في مد الموت الذي يرتفع معظم ساعات النهار ولا ينحسر الا في ليالي ضوء القمر. كأنه يحصّن نفسه حين يرتدي ملابسا شبيهة بملابس العسكر من ذكريات الفترة التي أجبر فيها على العمل مع الجيش الاثيوبي، كأنه يضع نفسه داخل الصورة التي يتحاشاها حتى لا يرى شيئا من الصورة نفسها. النسيم أيضا وجدت في إسمه وملابسه العسكرية تميمة حفظ من مضايقات السلطة، التي لم يكن رجالها يتربصون بها بسبب عملها في الممنوعات، بل لإجبارها على دفع أموال شهرية لهم. النسيم تعلمت أن لا تكترث بهم كثيرا رغم مخاوف مداهمات الشرطة المفاجئة. كانت النسيم تساومهم كثيرا حتى لا يخرج أفضلهم حظا بأكثر من مئونة يوم واحد من الشراب. تعرف النسيم أن المنطقة كلها تكاد تخرج من سيطرة السلطة بفضل التمرد وفوضى تجارة كل شئ بسبب طول المنطقة الحدودية التي يصعب السيطرة عليها.

الزينة ايضا كانت فيما مضى إحدى فتياتها الاثيرات. قبل أن تغادر البيت بعد أن تسببت أيضا في ذهاب إحدى أفضل فتياتها. كانت قادمة من المجهول حين تلقفتها النسيم وضمتها الى طاقم فتياتها. قبل ان تغادرها وتتسبب أيضا في رحيل سليمان العسكري . كانت الزينة فتاة رائعة إكتسبت محبة النسيم منذ يومها الأول في البيت، حين تكون الزينة موجودة في البيت لا تحمل النسيم هم أي شئ، كل شئ يمضي كأفضل ما يكون، كانت تملك يدي ساحر، حتى القهوة التي تصنعها يختلف مذاقها عن كل قهوة أخرى يعدها أفضل خبير في إعداد القهوة. يتدافع الناس دائما لشراء المريسة في اليوم الذي تتولي فيه الزينة مسئولية صناعة المريسة. في يوم السوق الاسبوعي الذي يسمى في الانداية يوم النسيم، شيخة الانداية، تتولى الزينة الاشراف على كل شئ. إذا غابت الزينة للحظات في المرحاض أو لتغير ثيابها يملأ صراخ النسيم العالم حتى ترى الزينة أمامها. لكن الزينة كانت تحلم دائما بزوج عطوف وبيت صغير يضمها معه وأطفال ترسلهم صباحا الى المدرسة. كانت تعيش في بيت أسرتها مع عشرة من الاخوة والاخوات، كان ثلاثة منهم مرضى بالصرع والبقية صغار السن، والدها يكد طول النهار في المزارع ولا يستطيع حتى إيفاء متطلبات الاسرة بسبب غلاء سعر أدوية أخوتها المرضى، فعل كل شئ من أجل الحصول على المال، لكن المال ظل دائما

عصيا أمامه، فشل حتى حين عمل قاطعا للطريق، أثناء بحثه عن وظيفة سهلة وسريعة العائد. معتقدا ان الأمر لن يحتاج سوى بندقية ومقدرة على الصراخ بصوت يدخل الرعب في القلوب. قاده حظه السئ لقطع الطريق على رجلين كانا يعبران الحدود ببضائع مهربة. حين لاحظ الرجلان إرتباكه، وعرفا انه مجرد قاطع طريق غير محترف، تمكنا من الايقاع به وأوسعاه ضربا حتى كاد يفارق الحياة. الفقر الذي ظل يصارعه طوال سنوات عمره كان هو الذي أنقذه من الموت. فبعد أن ضربه الرجلان، أمسك أحدهما بالبندقية ووجهها نحوه وأطلق النار، ليكتشفا أن البندقية لم تكن محشوة بالذخيرة! فقد إشتراها من تاجر ودفع جزءا من سعرها على أمل أن يقوم بتسديد بقية ثمنها بعد نجاح عمليته الأولى. وبسبب الفقر لم يستطع شراء ذخيرة، فقرر أن يغامر بها في عملية تجريبية، قليلة التكلفة. لن يحتاج لإطلاق النار فيها. ضحك الرجلان، وقال أحدهما : في المرة القادمة يجب أن تحمل سكينا ربما يكون أفضل من بندقية فارغة. ثم أخذا البندقية معهما وغادرا. توسل اليهما أن يتركا البندقية له، لكنهما لم يلتفتا اليه، حكى لهما بصوت مرتفع أنه إشتراها ولم يدفع ثمنها وأنه فقير ولديه أطفال. لكن الرجلان سارعا بالمشي حتى إختفيا خلف أجمة أشجار، كأنهما كانا يهربان من قصص فقره. تزايدت مشاكله المالية بعد فشل عملية قطع الطريق وضياع البندقية. لبث مختفيا في البيت طوال عدة أيام بعد ذلك، خوفا من التاجر الذي باعه البندقية، وخوفا أن يقوم شخص ما ربما شاهد حادثة قطع الطريق، بإبلاغ السلطات عنه. حتى إختفى ذات يوم دون أن يترك أثرا، بحثوا عنه دون جدوى في كل مكان وأتصلوا بأهله في قريته البعيدة لكنهم أخبروهم أنهم لم يروه منذ عدة سنوات، منذ ان رحل عن البيت ذات يوم بنية السفر الى الأراضي المقدسة عبر الحدود الشرقية للعمل هناك، ثم إختفى الى الأبد. بحثوا عنه في المزارع البعيدة وفي مهرجانات الحصاد التي كان يهوى الغناء والرقص فيها قبل سنوات، وأستأجروا رسولا بحث عنه عبر القرى الغارقة في المطر عند سفوح الهضبة الحبشية، حتى وصل مشارف بحيرة تانا دون أن يعثر له على أثر ، كأنه تبخر في الهواء.

الزينة حاولت بإعتبارها أكبر أخوتها أن تجد عملا فلم توفق، حتى عرفت بالصدفة أن النسيم تبحث عن فتيات للعمل معها. كل الأجر الذي كانت تحصل عليه، كانت ترسله يوم السوق لوالدتها. كان أحد اخوتها يحضر أحيانا الى السوق أو يحضر احد أقربائها. منهم كانت تطمئن على أخبار امها واخوتها.

سليمان كان يساعد النسيم حين يتحتم عليها مغادرة مقعدها لقضاء حاجتها أو للاستحمام. كان يجلس أمام المرحاض مثل كلب وفي، ينتظرها حتى تقضي حاجتها أو تغسل جسمها ثم يساعدها للعودة الى الكرسي، ترسله أثناء النهار لشراء مستلزمات صناعة الخمور وبقية

إحتياجات البيت. أثناء النهار تكون حركة البيت هادئة. يندر حضور أية زبائن، خصوصا في مواسم زراعة وحصاد السمسم.

ينام سليمان في الفناء بعيدا قليلا عن النسيم وفتياتها. أثناء النهار حين لا يكون هناك شئ للعمل يقوم سليمان بمساعدة الفتيات في نظافة البيت والطبخ. تمازحه الفتيات دوما حول إجادته طبخ بعض أنواع الطعام، لا يشير أبدا لتعلمه الطبخ أثناء الفترة التي قضاها مع جيش الجنرال منجستو، إذا ذكر أحدهم شيئا عرضا عن تلك الفترة كانت سحابة من الحزن تعبر فوق وجهه. ذات مرة كانوا يتناولون جميعا طعام الغداء ، كان هو قد أعد شوربة العدس، أبدت النسيم إعجابها بالحساء، علّقت إحدى الفتيات دون ان تقصد شيئا، لقد تعلم سليمان ذلك من معسكر الجيش! إستمع سليمان العسكري لها كأنها تتحدث عن شخص آخر، لبث يمسك باللقمة في يده لبرهة وهو لا يعرف ما الذي حدث، عبرت سحابة الحزن القاتم في وجهه، أعاد اللقمة بهدوء الى الصحن ثم غادر البيت. نظرت النسيم بإتجاه باب البيت الذي أغلقه سليمان، إبتسم الحظ للزينة، بالصدفة إختارتها النسيم لتذهب من خلف سليمان وتعيده الى البيت، إلتقت نظراتها بنظرات الزلال، فصعقتها شحنة الحقد، أسرعت تجري من خلف سليمان ولم تنتبه حتى لتركها الباب مفتوحا، رغم أن النسيم كانت تحذر من مغبة ترك الباب مفتوحا، خوفا من الكلاب المتشردة أو البهائم الهائمة، أو رجال الشرطة.

وجدته الزينة جالسا في الوادي الذي يعبر الغابة الصغيرة خلف البيت، قالت له كن حذرا هذا المكان مجرى قديم للسيول، والأمطار الغزيرة بدأت تهطل في مرتفعات إثيوبيا. الزينة كانت واعية لصعوبة معركتها من أجله، لذلك لم تتعجل الطريق اليه، تعرف أن الطريق الى جبل قلبه بالغ الوعورة، وخوفا من إرتكاب أية خطأ يجعلها تفقده الى الأبد. مضت فقط تنصب الفخاخ من حوله حتى يسقط في فخ حبها من تلقاء نفسه. كان واضحا في البيت أنها تخوض معركة حياة أو موت مع الزلال، الزينة رغم جمالها الهادئ لكنها لم تكن تضاهي جاذبية الزلال، سليمان رغم لامبالاته بما يدور حوله، لكنه كان دون وعي يزيد من نيران الغيرة لدى الزينة لاختياره مساعدة الزلال في عملها. تحاول الزينة ان تكون دائما في المطبخ لمعرفتها بحب سليمان العسكري للطبخ، لكنه دائما يكون موجودا في مكان الزلال، يساعدها في نظافة البيت أو صناعة مشروب المريسة. تحاول الزينة إبقائه بجانبها بدعوى ان النسيم طلبت ذلك، أو لأن هذا العمل يحتاج لرجل، أو لأنه أفضل من يتذوق طعم أكلها، كان هناك عدو خفي آخر، أسمرينا! فتاة تنتمي للحدود السودانية الأريترية، رشيقة القد، تعبر داخل فناء البيت مثل وردة سنط، فتعبر خلفها نسمة تحرك هواء الخريف الراكد فوق أشجار السنط، كانت أشبه الناس بسليمان العسكري نفسه، حضورها قوي لدرجة أن يختفى

كل جالس في حضرتها، لا يسمع سوى صوت تنفسها وزلزال دقات قلبها، ملكة حقيقية وليس مجرد راقصة توجت بالصدفة ملكة في غحدى مواسم حصاد السمسم. تملك مقدرة أسطورية لتكون عادية جدا رغم أنها تقلب العالم رأسا على عقب حين تمشي أو تتوقف عن المشي. ظهرت في إنداية النسيم ذات نهار، بوجهها الجميل الذي كانت النسيم تطلب منها غسله عدة مرات في اليوم أملا في إزالة الغبار الضوئي الذي علق برموشها منذ لحظة مداهمة رجال الجيش لمهرجان الحصاد بحثا عن المتمردين. حين وصلت الى بيت النسيم كانت لا تزال ترتدي ثوبا من الريش الملون والخرز، شاركت به في أداء رقصة الجالك الشعبية، في مهرجان جدع النار عند إفتتاح موسم الحصاد، حين تظهر في مكان ما داخل البيت، كان سليمان يبتعد عن مكان وجودها أو يبقى يراقبها دون أن يجرؤ على الاقتراب منها، يعرف أن من يقع تحت سحر سطوة هذه الفتاة البالغة النحافة مثل عود من الخيزران، سيفقد أيضا حتى القدرة على الحياة، يصبح كتابا مفتوحا لكل عابر سبيل. يحصّن نفسه بوضع قناع مسحة حزن على وجهه الوسيم، لقد قام بتجربة قناعه عدة مرات، كان يعزله من الحاضر، يبقيه خارج الزمن، يحتاج لبعض الوقت حين يخلع قناعه ليعتاد على نبض الأشياء من حوله، مثل قادم من عالم آخر. عدو آخر أكثر عجلة، ليلى، أقلهن حظا في الجمال، رغم قوامها الجميل، لا تميل للبكاء على أية أطلال، تتقدم الصفوف دائما في أية مهام صعبة. وجدت نفسها ذات نهار وحدها مع سليمان العسكري في البيت، خرجت الفتيات جميعا للمشاركة في مسابقة ملكة جمال الحصاد. كانت هي الوحيدة التي رفضت الذهاب. قالت أن من ينظم البرنامج يريد إستغلال الفتيات للترويج لأعماله التجارية. كانت النسيم تغط في النوم، سليمان العسكري كان يشعر بصداع نصفي منعه من الخروج مع الفتيات. ربطت له ليلى رأسه حسب نصيحة النسيم وأعدت له كوبا من القهوة. أخلد للنوم في صالة البيت وفجأة إستيقظ على شخص يداعب عضوه الذكري. كانت ليلى تقف عارية تماما في مواجهته، شله الارتباك تماما، المرة الاولى في حياته التي يقف فيها أمام إمرأة عارية، لبث في مكانه يحدّق فيها كأنها كائن فضائي هبط لتوه من أحد الكواكب. حين بات واضحا أن دهشته ستستمر الى الأبد وأنه عاجز عن أية مبادرة، إقتربت ليلى أكثر حتى شعر كأنها تخترق جلده، كانت رائحتها قوية، قادرة على إختراق أية شئ، حتى الزمن. شعر بها تخترق أعماق روحه، منذ أزمنة سحيقة. وضعت جسدها بجانبه في الفراش وفتحت فخذيها، مدت يديها تسحب جسده نحوها، كان واضحا من عرقه المتصبب أن نار العجز تحرقه أكثر من نار الرغبة، حاولت مساعدته ليمسك زمام المبادرة لكنه كان لا يزال مشنوقا في مقصلة صدمته، يبدو مثل شخص ضائع داخل جلده، لا يجد أية نقطة يرتكز عليها لينطلق. دفعته أكثر داخل جسدها، فتشبس بقاع روحه، فجأة بدأ طيف حياة يدب في روحه

وعضوه الذكري، يختلط عرقه بعرق ليلى، جسده بجسدها، لهاث لا ينتهي، فقد إحساسه بكل شئ لا يعرف حتى أين تقع حدود جسمه، يشعر كأن قلبه يدق داخل جسد ليلى وقلبها يدق في جسده، لا تزال ليلى تدفعه للوصول حتى ينتزعهما صوت النسيم تنادي على سليمان، إنتبه سليمان على صوت النسيم لعريهما، لعجزه عن الحب، لاختلاط جسديهما في دوامة الحب والعرق، لماض غريب تجسده صور في الذاكرة لا يستطيع ان يراها أو يجد منها فكاكا..

قفزالرقيب عبد الحي واقفا ونظر بإرتباك وخوف الى باب الزنزانة الفارغة، لم يفهم لم رأى وجهه في تلك اللحظة، كأن قضبان باب الزنزانة لم تكن سوى مرآة. توقف ذاهلا عما يحدث في العالم الذي شعر به يركض كله من حوله بينما هو ثابت في مكانه مثل جبل صغير ، لبرهة بدا كأنه لم يعد له صلة بهذا العالم، شعر بأن الدنيا تدور من حوله،، فجلس أرضا وهو يمسك برأسه، ثم بدأ ببطء يستعيد الوعي بالأشياء التي كانت تبدو مثل كائنات غريبة تقف في صفوف دائرية من حوله. تشبس للحظة ببقائه خارج الزمن، كأن ذلك سيدرأ عنه الكارثة القادمة أو سيعطيه إمكانية إعادة الزمن الى الوراء والتحكم مجددا في كل ما وقع له. اعتقد ان الرجل يقضي حاجته في مكان قريب وسيعود، ثم بدأ يفهم الكارثة التي حاقت به. سيسجن، وسيسحب الشريط اليتيم الذي كافح عدة أعوام حتى حصل عليه. وربما يحكمون عليه بالاعدام فالبلد في حالة حرب. كل شئ لا معنى له يمكن أن يحدث، وهو لا يعرف حتى شخصا مهما يمكنه أن يساعده، وسيتشرد أطفاله وربما تصبح زوجته مثل زوجة عوض عباس تمتهن البغاء او بيع الخمور لتربي أولاده. أول فكرة خطرت له أن يهرب فورا، يمكنه الوصول الى الحدود الاثيوبية خلال ساعات، لكن المشكلة في أطفاله، فكر أن يأخذهم معه، وكيف سيعيشون هناك؟ هناك صديق يعيش في مدينة على الحدود ربما يمكنه مساعدته، لكن أخباره مقطوعة منذ سنوات، هل لا يزال يعيش هناك ام انه رحل الى بلاد اخرى؟ لقد وثق في الأسير وباح له بكل أسراره! وماذا سيحدث إن قام الأسير بإرسال رسالة لقيادته ببعض هذه الأسرار! ما دام خان الثقة ولاذ بالفرار ما الذي يمنع إفشائه لكل الأسرار التي حكاها له، حاول دون جدوى أن يتذكر شيئا مما حكاه له. عاد ليفكر مرة أخرى في الهرب. إن بقي سيلقى القبض عليه وربما يسجن أو يعدم، وإن هرب ستكون تهمة تهريب الأسير ثابتة عليه.

فجأة خطرت له فكرة شيطانية، أحضر هؤلاء الجنود السكارى ليلا شخصا مؤكد أنهم لم يدققوا في تفاصيل وجهه. ربما بإمكانه احضار شخص آخر يسلمه لهم. فكر في خجل، كيف يسلم للموت شخصا بريئا، لكن فكرته مضت للأمام، حتى الرجل الذي لاذ بالفرار، مؤكد أنه برئ، يقبضون على الناس عشوائيا ويرسلونهم للموت. حاول أن يقتنع نفسه بالفكرة : سيموت الشخص الذي سيعثر عليه على كل حال، الحرب مشتعلة، والمجاعة تسابقها. كثير من الناس يموتون كل مساء بسبب الخمور المحلية المسمومة.وبسبب غلاء الدواء، وبسبب الجوع. ففي كل الاحوال من سيقوده حظه العاثر هو من يريد التقدم بنفسه بدلا من إنتظار الموت في أحياء الفقراء المنسية.

يحضر الجنود عادة مبكرا لإعدام الاسرى، سيكون امامه أقل من ثلاث ساعات للعثور على شخص ما أو يجب أن يحاول الهرب. ليس هناك وقت طويل لكنه تمنى ان يكون الشخص الذي سيحمله حظه العاثر الى طريقه، أحد الغرباء السبعة الذين رآهم في انداية النسيم، ستكون كارثة إن وقع في يده أحد سكان المدينة، سينكشف أمره عاجلا أو آجلا ، قرر أن يكمن بجوار الإنداية في إنتظار خروج أحدهم، معظم الغرباء الذين يرتادون الانداية يقضون بقية ليلتهم في العراء في المنطقة القريبة من الانداية، إختفاء احد هؤلاء الغرباء ربما لن يلفت نظر أحد فمعظمهم على سفر عبر الحدود، تكتنفه مخاطر عديدة، قطاع طرق وعصابات شفتة، وألغام أرضية، وميلشيات متمردة ، وحيوانات مفترسة. معظم الشباب أصلا هاربون من الحرب وسينتهي بهم المطاف في احدى الدول المجاورة، إن تجاوزوا مخاطر عبور الحدود، كمحطة للانطلاق الى احدى الدول الاوربية بحثا عن ملجأ لهم فيها. وسيكون صعبا قبل إنتظار سنوات معرفة مصيرهم. بعضهم يصلون الى وجهتهم والكثيرون يغرقون في البحر أو يموتون بسبب البرد والجليد في المناطق الحدودية الجبلية، معظم من يحاولون عبور البحر بقوارب التهريب الصغيرة التي تحمل فوق طاقتها من البشر، كما سمع، يغرقون في البحر ويستحيل التعرف على هوياتهم إن إمكن العثور على جثثهم.

لكن ان وقع في يده أحد اهل القرية، ستكون تلك مشكلة كبيرة، سيكتشف غيابه حتما وستصل الأخبار الى الحامية، ربما لن يكون مسئولا لوحده إن حدث ذلك، الفرقة المتعجلة التي لم تتأكد من هوية السجين، والفرقة التي ألقت القبض عليه ولم تسجل أية معلومات عنه، كلهم سيكونون مسئولون، لكن ربما سيكون هو صاحب النصيب الأكبر من المسئولية. لكن من سيهتم؟ الموت هنا هو الشئ العادي، الاستثناء أن تظل على قيد الحياة رغم عدم وجود مبررات واضحة لذلك.اذا أبلغ أحد الشرطة عن إختفاء شخص ما، لن يكلف الشرطي نفسه ولا حتى بتسجيل الواقعة. ذات مرة إختفى رجل كان يعمل في السوق بائعا للحبوب،

ذهبت أسرته بعد أيام من إختفائه وأبلغت الشرطة، قال لهم الجندي المناوب: هل بحثتم في بيوت الشراب! لابد أنه وجد خمرا جيدة وإستقر هناك! هل معه نقود كثيرة؟ إطمئنوا ما أن تنفد نقوده حتى يظهر فجأة مثل الشيطان! ما دام ليس غنيا لا تخافوا من أجله، الفقراء لا يموتون! يعرفون ان لا أحد سيكترث لهم، يكافحون للبقاء أملا في أن يتغير شئ ما في العالم. بالفعل ظهر الرجل بعد فترة، قضى يوما كاملا يذرع المدينة من أقصاها الى ادناها دون أن يتوقف لحظة واحدة، كان يبدو كمن فقد ذاكرته. لم يعثر على بيته طوال النهار، في المساء حين عاد الناس من المزارع تطوع أحدهم وقام بأخذه الى بيته. لابد أن الشرطي قال: ألم أقل لكم؟ لقد شرب حتى نسي بيته وربما نسي إسمه أيضا. لقد وجد خمرا جيدة. يغيب الفقراء من بيوتهم عدة أيام حين يجدون خمرا جيدة، ويخشون إن تركوها ألا يجدوها مرة أخرى. الخمر الجيدة أفضل من صديق وفي، الصديق يظل يذكرك بكل المشاكل التي تحاول نسيانها، يعتقد أنك يجب ان تواجهها لتجد لها حلا، لكن الخمر الجيدة تبحث لوحدها في ذاكرتك وتستخرج كل أحزانك القديمة والجديدة وتغسلها وتعلقها على حبل النسيان. وإذا أستحال غسل الأحزان بالنسبة لها، تقوم بحل المشكلة جذريا بغسل ذاكرتك كلها. فتخرج وأنت تحمل لافتة تضعها لك صاحبة الانداية مكتوب فيها إسمك وأين يقع بيتك حتى يتطوع شخص ما بأخذك الى البيت.

قرر الرقيب عبد الحي أن يبذل جهده حتى لا يقع أحد أهل المنطقة في يده. لم يفهم لم قفزت في تلك اللحظة الى ذاكرته صورة سليمان العسكري، ربما لأنه الوحيد من اهل القرية الذي تذكر أنه رآه مساء في إنداية النسيم. دهش لأنه لم يشعر بخوف أو ندم من احتمال وقوع سليمان العسكري في يده تلك الليلة، لن يفتقده أحد فقد جاء من المجهول وسيكون المجهول مصيره الحتمي. لا ينكر أنه لم يشعر بإرتياح نحوه، كان يراه دائما وسط فتيات الانداية او يقوم باعمال كان يراها هو من واقع حياته الاولى وتربيته العسكرية لا تليق بالرجال. كان سليمان عسكريا ذات يوم وحارب في صفوف جيش الجنرال منجستو لكن ذلك لم يكن كافيا ليتعاطف الرقيب عبد الحي معه، كان قد سمع بأن سليمان ووالده أسرا أثناء رحلتهما للانضمام لجيش المقاومة الارترية، وتم تجنيدهما بالقوة في الجيش الاثيوبي. كان ينظر لسليمان العسكري بإعتباره شاذا جنسيا، وحين كان يزور الانداية في فترة عمل سليمان بها، لم يكن يوليه أية اهتمام او حتى مجرد تحية عابرة. في إحدى المرات ذهب الى الانداية ظهرا، فتح له سليمان العسكري الباب، أزاحه من الباب ودخل دون أن يحييه، في الداخل لم يجد أحدا، تذكر أن النسيم تخلد أحيانا للنوم في مثل هذا الوقت، حين تنام متأخرا قليلا في الليلة السابقة. غادر المكان دون حتى أن يرد على سليمان الذي دعاه للجلوس

وذهب لإحضار كوب من المريسة له. حين أحضر سليمان كوب المريسة، دهش حين وجد الرقيب عبد الحي غادر البيت دون أن يقول شيئا. فكّر الرقيب عبد الحي أن يذهب الى الأنداية ويستدعي سلميان العسكري تحت أي حجة، ويلقي به في الزنزانة! لكنه عرف أن الأمر سيكون واضحا في تلك الحالة. شعر بالندم قليلا، تذكر أن سليمان فارق والدته صغيرا ولم يتمكن من العثور عليها مرة أخرى، ويقال أنه شهد بعينيه إعدام والده، الذي ألقت قوات الجيش الاثيوبي القبض عليه وهو يحاول الهرب. نفض الفكرة من رأسه وقرر أن يترك الأمر للصدفة، لمن سيسوقه القدر الى طريقه.

أخذ الرقيب عبد الحي سلاحه وغادر المعسكر على عجل، سمع صوت آذان الفجر من على البعد لكنه عرف أنه لن يستطيع الاقتراب من وسط المدينة، عليه البحث في أحد الأحياء الطرفية القريبة من المعسكر، حيث لا يمكن ملاحظة فروق كثيرة بين الحياة والموت..

سليمان العسكري قرر الخروج ايضا في وقت متأخر لاحضار مزيد من الشراب، حاولت الزينة منعه لكنه رفض الامتثال لها، الحقيقة انه كان يرغب في اكمال السهرة في الانداية، شعر فجأة بالشوق لرؤية أسمرينا، حين كان يقيم في الانداية، لم يحاول أبدا التقرب منها، كان يشعر بالخوف حين تقترب الفتاة الرائعة الجمال منه، لكنه في هذه الليلة تحديدا شعر بشوق شديد لها، شعر كأن الفتاة الجميلة ربما تضيع الى الأبد في تلك الليلة، وأن رؤيته لها ستجعله يستعيد السيطرة على مد الموت من حوله، مثلما ما كان يحدث له حين يضيع مع الزلال في متاهة القمر وسكون أشجار السنط. بدت له الزلال مثل قمر يتحكم في مد الموت وجزره. حين تكون بعيدة عنه أو تخلد الى النوم، حين تختفي رائحة نوار السنط من العالم، كان مد الموت يرتفع من حوله، يحاصره ويرتفع الموج حتى يغرق ذاكرته. حين يكون قريبا منها، حين تفوح رائحة نوار زهرة السنط، وتغرق الدنيا، ينحسر مد الموت، يشعر بنفسه جزءا من أية شئ في العالم من حوله، ينبض قلبه مع نبض مواسم الحصاد، يشعر بالمطر الذي يروي حقول الذرة والسمسم، يهطل في روحه قبل أن يبدأ في إغراق الحقول. تنبت كل وردة في الدنيا في قلبه، حين مرضت الزلال وشارفت على الموت، شعر بالرعب، سوف يخسر كل شئ إن إختفت الفتاة من الدنيا، سوف يغرقه المد! يلاحظ دون خجل أنه كان يبكي على روحه قبل أن يبكي على الفتاة التي كانت تذوي مثل وردة صبّار برية. فهم بسرعة أنه يجب أن يبحث عن بديل يجعل محرّكات التحكم في مد الموت تعمل، يحوّل ذاكرته من الدفاع الى الهجوم في مواجهة رياح الموت، يساعده على كشف أحابيل الموت، التي تبدأ من مجرد خدع ضوئية صغيرة، لا تلفت الانتباه، شظايا بذور ضوئية تتفجر مثل نوافير ضوئية صغيرة فجأة أثناء مروره في الحقول، أسهم ضوئية تفلت مساء من مجال الرؤية لتسقط

داخل وجهه. يحتاج لمن يساعده في تفكيك الشباك التي ينصبها الموت من حوله ليلا، حين تختفي رائحة نوار السنط، ولا يبددها الا ضوء النـهار، الذي ترتفع من فوق المدى الغارق في أمواجه، رائحة نوار السنط.

أوقد السيد الرئيس شمعة لأن الكهرباء إنقطعت فجأة ثم أحضر بقية زجاجة خمر محلي، كان يقتصد في شرابها بسبب ضيق ذات اليد. ثم تذكر أنه يحتفل اليوم بعيد ميلاده الستين. خلال العام الأخير تغيرت أشياء كثيرة، سيحتفل هذه المرة لوحده بعيد ميلاده، بعكس إحتفال العام الماضي بالقرب من حدود بلاده. لقد أطفأ شمعة عيد ميلاده وسط دوي أصوات المدافع. كانت تلك آخر معركة يقودها رجاله، قبل أن يتفرقوا أيدي سبأ، يتعفنون في المنافي الرطبة. يتجرعون سموم الخمور الرخيصة، التي يخفف من كآبة شربها، فوضى ضجيج أكورديونات الفرق العابرة عبر الحدود، التي تتصاعد من غابة المانجو في خمول قيلولة ما قبل هطول المطر. وغناء العمال السكارى العابرين الى مواسم الحصاد. ويموتون دون عزاء في أكواخهم المعتمة في أحضان العاهرات الفقيرات، لا يبقى لهم من عزاء سوى صور عظمتهم المشكوك فيها، التي يثبتونها بمسامير إصلاح الأحذية على الجدران، يظهرون فيها وهم يضعون حجر أساس مشروعات منسية من أجل تطوير البنية التحتية، أو وهم يفتتحون مصانع للمياه الغازية، أو يخاطبون الجماهير في أعياد الثورة. الثورة التي ضاعت تفاصيلها في النسيان، بعد أن تم محوها من الكتب المدرسية والأفلام الوثائقية التي كانت تعدها وزارة الإعلام لعرضها في مهرجانات السينما المتجولة، وقبل عروض الأفلام على إمتداد الوطن. في دور العرض التي يتعين فيها حمل مظلات محلية مصنوعة من جوالات البلاستيك للوقاية من المطر الاستوائي الذي يهطل دائما في أصعب لحظات المشاهد العاطفية، أو تلك التي يواجه فيها بطل الفلم الهندي الخائن الذي دمّر حياته. في إحتفال عيد ميلاده الأخير، شاركت في إحياء الحفل الصاخب فرقة موسيقية مكونة من ثلاثين رجلا وغرقت الأرض في أنهار من الخمور المحلية والمستوردة.

في العام الماضي كان الاحتفال بحضور عدد كبير من الاصدقاء ورجال حركته . لكن كل شئ تغير هذا العام، لقد وقّعت الدولة التي تستضيفه إتفاقية سلام مع دولته توقف على إثرها الدعم الذي كان يحصل عليه طوال سنوات من الدولة المضيفة .

أيقظته في الصباح طرقات على الباب. وجد ضابطا في إنتظاره خارج الكوخ، دعاه للدخول لتناول القهوة لكنه إعتذر عن الدخول بدعوى أنه مشغول بأمر ما، أوضح أنه مكلف بتسليم سعادته رسالة من القيادة، لم يوضح أي قيادة يقصد، قيادة الجيش أم قيادة هذا البلد الذي يعيش فيه منذ سنوات، منذ أن إحتضنته حكومته وأمدته بالمال والسلاح لإسقاط الحكومة القائمة في بلده بسبب دعمها لتنظيمات معارضة لسلطة البلد الذي يستضيفه. تم تعيينه رئيسا في الانتظار في إحتفال رسمي، إرتدى فيه ملابس عسكرية كاملة ووضعت فيه على رأسه قبعة عسكرية مزينة بريش النعام الملون، وحين وصوله لمكان الاحتفال تفقد مع الرئيس المضيف حرس الشرف. لقد أمضى ثلاث سنوات يتصرف كرئيس دولة. يصدر القرارات الجمهورية بترقية ضباطه وبتعيين مبعوثين شخصيين له . خاضت جيوشه معارك خسرت معظمها، لكن ذلك لم يؤثر على معنوياته أو يغير شيئا من الواقع. فالحرب نفسها أصبحت مهنة. وأعباء الرئاسة الحقيقية لن تكون سهلة حتى يتعجلها، وفي كل الأحوال فهو يواصل في ممارسة سلطته الغيابية من البيت الذي منحته له الحكومة كمقر مؤقت له ولسلطته.

في مقر اقامته كانت السلطة تستمر يوميا حتى الثالثة بعد الظهر، يخلد بعدها السيد الرئيس للقيلولة، غارقا في عرقه في قيظ الساعة الثالثة بعد الظهر الذي لا تخفف مروحة السقف العتيقة شيئا من ضراوته. وان كانت تخفف قليلا من ضربات البعوض الذي يتسلل من فتحات سلك النملية الذي يغطي النوافذ.

الساعة الخامسة بعد الظهر يبدأ البيت في التحول إلى خلية نحل، يحضر أولا ضباط حركته، من قدامى المحاربين، مرهقين من وعثاء الهزائم، لم يكسبوا طوال حياتهم حربا ولا حتى على طاولة دومينو. تبدو على وجوههم إمارات ورع مزيف يتبدد مع أول خيوط الظلام. يتحدثون دائما بأصوات عالية أو يبدون في حالة انهماك مزيف في النقاش، كأن صمتهم يفضح همس الشائعات التي تطاردهم حول الأسلحة التي يبيعونها دون أن تطلق طلقة واحدة. وتجارتهم الحدودية في كل شئ من الملابس العسكرية إلى زجاجات الويسكي والأدوية المنشطة جنسيا. اذا حاول أحدهم التحدث حول الموقف العسكري يوقفه بإشارة من سبابته: ممنوع ممارسة الحرب مساء! يتم تجريد الجميع مؤقتا من رتبهم العسكرية، يحتفظ

هو فقط بلقبه الخالد: السيد الرئيس. الحقيقة أنه بمضي الزمن، كان يصبح عمليا ممنوعا ممارسة الحرب نهارا أيضا. حتى في أوج نشاط البيت الرئاسي نهارا كان عساكره يهربون الى أية جهة تدفع رواتبهم كمرتزقة، وكان أفضل ضباطه يتعفنون في وهدة إنتظار دون أمل. ينهش البعوض أجسادهم في ليالي السافنا القائظة، حين يستحيل حتى التنفس في الهواء الراكد في ساعات ما قبل هطول المطر.

يحضر أصدقائه من ندماء الشراب القدامى، بعضهم يحملون جنسية البلدين بسبب إنتمائهم لقبائل حدودية مشتركة. ينسون حين تستعر نار الشراب إلى أي وطن ينتمون، يقول احدهم مشيرا إلى جركان الخمر المحلية: هذا هو الوطن! ثم يوضح: يكون جيدا أحيانا فيسكرك قبل إن تشرب منه، ويكون سيئا في أحيان أخرى، مغشوش بالماء فلا يحرك فيك ساكنا! لكننا لا نستطيع تركه، فهو الوطن!

ثم يحضر الطباخون ، يقومون يوميا بذبح ثلاثة خراف، لا ينس أحد جنرالاته أن يعلق يوميا بالقول حين يرى الخراف مذبوحة تنزف آخر قطرات دمائها قبل تعليقها للسلخ:

هذا هو الدم الوحيد الذي نجحنا في إراقته منذ أشهر!

يعلقونها في الفناء وبعد سلخها يستخرجون المعدة والامعاء لطبخها ثم يشوون بقية الخروف كاملا، وكأن تصاعد رائحة الشواء هو الاشارة التي تظهر على اثرها الفرقة الموسيقية مع الراقصات الحبشيات. يبدأ الغناء بعد أن تتناول الفرقة الموسيقية العشاء في صخب إستوائي.

حين توشك السهرة على الانتهاء عند بدء إنبلاج ضوء الصباح يقف السيد الرئيس متأبطا يد الراقصة الأفضل أداء تلك الليلة وكأنه عريس على وشك السفر مع عروسه لقضاء شهر العسل بعد إنتهاء مراسم زواجه، يشكر الجميع على حضورهم راجيا أن يكون الاحتفال قريبا في الوطن بعد تحريره من الطغمة الفاشية التي سرقت موارده وسلمته للشركات الأجنبية .

يؤمن بالتعددية فقط في فراشه. تقبض الراقصة التي تقضي الليل معه حسابها صباحا من الحرّاس وتغادر البيت قبل أن يستيقظ هو من نومه الرئاسي. وأحلامه الوطنية، يرى الوطن مثل سفينة تبحر دون هدف الى المجهول. دون قبطان، ودون بوصلة. لا يستطيع أن يرى او يعترف ان الحياة تمضي، حتى بدونه، أن سفينة الوطن كانت تشق طريقها وأن النوائب

التي كانت تعترضها أحيانا لم تكن بسبب غيابه بقدر ما كانت نتاج سياساته الهوجاء التي ظل الوطن يدفع ثمنها، فيما يتدحرج هو الى النسيان وتختفي صوره من كل مكان في الوطن، لا بفعل فاعل لأن من خانوه كانوا يريدون غسل منجزات عهده من ذاكرة الوطن، كما مضى يرّوج وسط ضباطه ومساعديه في المنفى، بل بسبب عوامل التعرية والرياح الموسمية الممطرة التي إكتسحت حزام الجفاف في مملكته معلنة بدء دوران الفصول والتاريخ. فتغيرت بفضل الرياح معالم صوره المعلقة على جدران الوطن، وتماثيله التي غطى ملامحها سلح طيور الوطن والطيور المهاجرة من أقصى الأرض بحثا عن الدفء والغذاء في المملكة الشاسعة التي كان يحكمها. حيث رنين أجراس الكنائس أيام الآحاد، والأذان في أيام الجمع.

لاتترك فيه نساء الليل العابرات أثرا يذكر، إمرأة واحدة تركت أثرا كارثيا على أسطورة تعددية الحب التي يؤمن بها. كانت قد شاركت بالغناء والرقص في الليلة السابقة، رغم أن الخمر المحلية التي شربها كانت تحجب عنه روائح العالم لكنه إشتم في هذه المغنية الراقصة رائحة زلزلت ذاكرته. رائحة زهور شجرة البونسيانا ، يا للكارثة! إنها رائحة قصره الجمهوري السابق! الذي كانت تغص حديقته الضخمة بأشجار البونسيانا الملكية. رائحة زمن الأمجاد المنسية!، الزمن الذي صدّق فيه ان وجود الوطن نفسه كان مرهونا بوجوده هو، ان كل شئ كان يعمل بإشارة من يده، تهب الرياح ويهطل المطر ويدور بندول الساعة بإشارة من يده. يقول مستشاروه: حين تخلد للنوم سيدي الرئيس، تتوقف الحياة في العالم، تتجمد حتى الحياة في بحيرة فكتوريا. الآن لا يأبه احد لنومه أو إستيقاظه، يستمر كل شئ أثناء نومه، يتعالى لغط العامة في الأحياء المنسية الفقيرة، وترتفع أصوات الآت موسيقية صدئة مع رائحة الخمر الرخيص. حتى انه كان يفتح نافذة غرفته في بيت الضيافة أحيانا ليصرخ في سائقي عربات الأجرة الذين يلعبون ورق الكوتشينة طوال الليل، ليتوقفوا عن العراك حين يسرق أحدهم إحدى الأوراق ويخرجها من كمه حين تستعر حمى اللعب مثل ساحر.

ليلا في حمى الجماع، حين إختلطت موسيقى الجاز برائحة العرق ونيران إحتراق شظايا الرغبة في قاع الجسد. مع دخان الجسد تصاعدت رائحة زهور شجرة البونسيانا، رأى نفسه وهو ضائع في متاهة الجسد البونسيانا يفتش حرس الشرف في رذاذ مطر سبتمبر مع رئيس ضيف كان يزور بلاده، نظر في وجه الرئيس الضيف، وفجأة إنتهي كل شئ، أطفأت المياه الدافئة في ذروة الحب نيران الجسد، إنفصل بجسده بعيدا قبل أن تقفز صورة

الرئيس الضيف الذي إستعرض معه حرس الشرف بين أشجار البونسيانا الملكية. فصرخ قائلا:

اللعنة، إنه بل كلينتون!

في الصباح حين إستيقظ من نومه، بحث عن المرأة، عن وردة البونسيانا كما صار يدعوها، فلم يعثر لها على أثر، حاول إقتفاء رائحتها داخل البيت فلم يعثر على شئ، كأنها سحبت معها رائحتها المميزة من كل مكان في البيت قبل أن تغادر. خرج الى الحرّاس وهو لا يزال بملابس النوم، يسأل عنها، عرف أنها تقاضت أجرها وغادرت البيت مبكرا! يا للكارثة، أصدر أمرا جمهوريا ألا يغادر أحد البيت قبل الحصول على إذنه!

أوضح أحد الحرّاس: لكن هذه ليست المرة الأولى سيدي الرئيس!

قال بثقة رسمية: بل هي المرة الأولى!

أصدر أمرا للحرس بالبحث عنها وإحضارها. لكنهم لم يعثروا عليها أبدا حتى فقد هو سلطة البهجة وسلطة الحب التعددي. وغادر الى المجهول حيث الموت الذي أدمن الهروب منه، يحوّم في كل مكان مثل كلب ضال في ساعات الهجير. أصدر أمرا جمهوريا بتعيينها ملكة على أشجار البونسيانا، وجائزة ضخمة، وترقية إستثنائية لمن يستطيع العثور عليها وإحضارها، حتى وإن كان مدنيا لم يستخدم من قبل ولا حتى بندقية لعب. بحث الحراس عنها في كل مكان في المدينة الكولونيالية القديمة الغارقة في الرذاذ، وفي كل مكان زاروه كان يسمعون أن موكب فرقتها غادر لإحياء حفل في مكان ما ربما خارج الحدود.

كان يبدو حزينا تحت تأثير وهم أنه لن يستطيع إستعادة عرش سلطته الضائعة ما لم يستطيع اولا إستعادة ملكة البونسيانا. تعزى في غيابها بمواصلة الحب التعددي أملا في أن القدر الذي وضع ملكة البونسيانا في طريقه، سيفعلها مرة أخرى، وسوف لن يستحيل أن يعثر على بديل برائحة زهور البونسيانا.

ذات مساء بعد أن إنصرف الجميع، حين دخل الى غرفته برفقة الراقصة الأخيرة، وجد إمرأة في فراشه وقد وضعت فوق جسدها ثوبا خفيفا لحماية نفسها من لسعات البعوض. كانت تفوح منها روائح عطور قوية، للوهلة الأولى حسب السيد الرئيس أنها هي، وأنه بمجهود قليل سيميز رائحة زهور البونسيانا من طوفان الروائح التي أغرقها فيها الحرس الرئاسي الطامع في المكافأة. كانت تشبهها فعلا، أمر الجنرال الحرّاس بإعطاء الفتاة الأخرى أجرها

وصرفها فورا، عرف بخبرته أن إستعادة السلطة، ستكون أكثر صعوبة من الإحتفاظ بها، تناول قرصا منشطا، ثم توقف قليلا ريثما يعطي جسده فرصة إستعداد كامل لمعركة مصيرية ، تأكد أن قلبه يمكنه الصمود في معركة إستعادة العرش الضائع في روائح بونسيانا الذاكرة. شاعرا أنه سيحتاج الى أنفه أكثر من قلبه في هذه المعركة الفاصلة. حين بدأ في التعري لاحظ للمرة الأولى أن بطنه قد كبرت كثيرا في الآونة الأخيرة، حتى أنه لا يستطيع رؤية عضوه الذكري، تذكر نصيحة طبيبه بأن يمارس رياضة المشي يوميا لبعض الوقت، قال له الطبيب، صحتك قوية سيدي الجنرال، هذه إحدى ميزات الحياة العسكرية، ضغط الدم طبيعي، وكل شئ يبدو جيدا، لكننا يجب أن نحترس، كلما تقدم الانسان في السن، قال الطبيب، تقل حركته، وتصبح إحتمالات زيادة الوزن كنتيجة لذلك كبيرة. لا يعرف الطبيب أنه منذ عقود لم يمارس أية تمارين عسكرية او مدنية! أطول مدة مشاها بقدميه، كانت حين يستعرض حرس الشرف في حفلات إستقبال السفراء أو الرؤساء الزوار. أو في عيد الثورة، حين شعر أنه يستعيد إمكانية تركيز حواسه كلها وهو عار تماما، لم يشتم رائحة أشجار البونسيانا لكنه رآها! شعر بالدهشة! كيف يرى الانسان بأنفه! رأى سحابة العطر الخالدة تعبر أمام عينيه وتجتاز سلك النملية المثبت فوق النافذة الى فراغ القيظ الاستوائي في الخارج. وسمع صوت غناء وصوت محرّك سيارة قديمة عبرت في تلك اللحظة، فيما جلست جوار السائق، ملكة البونسيانا الحقيقية!

نسي بسرعة الرائحة التي رآها، وحاول أن يركز في معركة أستعادة العرش، أغمض عينيه وأشرع مدفعه الوحيد الذي بقي يعمل، وبدأ هجومه الصاعق. ما كاد يبدأ حتى إكتشف ان رفيقته تملك حضورا طاغيا في الحب، إجتاز كل المراحل أملا في ظهور رائحة زهور البونسيانا، طفق يبحث في دواخلها دون جدوى، عثر على زهور ذابلة، سلاحف ميتة، ومقبرة آلات موسيقية مدفونة كلها ولا تبرز منها سوى اليد التي تحمل الأوتار! فجأة عثر على قارورة عطر منسية ففتحها ونثر محتوياتها في الهواء، فإندلعت رائحة حيوان الظربان! تغرق المكان، قفز من الفراش واندفع هاربا من الغرفة.

يستعيد البيت الرئاسي وقاره صباحا. يستحيل التصديق انه نفس عرين فوضى الحب والبهجة المسائية، يصبح الكلام في ردهاته همسا بين المستشارين المتعجلين والوفود الحكومية التي تنسق مع ضباطه للهجمات الجديدة على قوات بلاده.

لم ينتبه في الفترة الأخيرة لبدء تناقص عدد المندوبين الحكوميين. عزا ذلك لإنشغال حكومة البلد المضيف بمشاكلها الكثيرة. حتى لاحظ تناقص الدعم المالي الذي يتلقاه شهريا، مع رسالة إعتذار بسبب الضائقة الاقتصادية التي يعاني منها البلد المضيف. لقد تعين عقد مجلس حرب مع ضباطه لدراسة التغيرات الجديدة. كشف ضباطه انهم لاحظوا أيضا مضايقات في الحصول على الذخيرة وحتى الاسلحة التي يقومون بشرائها من جهات خارجية أصبحت تواجه مصاعب في السماح بإدخالها بل إن حكومة البلد المضيف صادرت قبل أيام شحنة أسلحة كانت قادمة لقواته بحجة إن الاسلحة تخالف المواصفات المتفق عليها . علق قائلا: يبدو إن شيئا ما يحدث من خلف ظهورنا! في الماضي كان بإمكاننا ادخال دبابة برخصة إستيراد كلاشنكوف!

أوضح أحد ضباطه: سمعت خبرا غير مؤكد يقول إن حكومة البلد المضيف تفاوض حكومتنا سرا!

يا للكارثة! شعر كأن العالم ينهار من حوله، لماذا لا يخطروننا بذلك؟ تساءل السيد الرئيس محاولا إن يخفي جزع صوته الواضح بتركيز نظره في فراغ النافذة، لم يقل ضباطه شيئا ، لكن طيف ابتسامة عبر في وجوههم جميعا قبل أن يتلاشى أمام هيبة فزع السلطة المسائية.

إقترح أحد الضباط تعليق العمليات العسكرية حتى يتضح الموقف، قبل أن يردف مبتسما : وحتى لا نضطر بعتادنا القليل أن نحارب في جبهتين!

وجد السيد الرئيس الإقتراح جيدا خاصة والميزانية الجديدة لن تكفي لتغطية تكلفة حرب النهار ومعارك البهجة ليلا.

بعد إستلام ميزانية الشهر التالي تعين إتخاذ قرار جمهوري لتخفيض تكلفة معركة البهجة المسائية. بدلا من ذبح ثلاثة خراف يوميا تناقص العدد إلى خروفين ثم تناقص في الشهر الثالث إلى خروف واحد ، علق بأسف مساء وهو يستقبل ضباطه:

من المحزن أن نخفض الصرف على المعركة الوحيدة التي نكسبها كل ليلة!

جلس السيد الرئيس في مقعده بعد أن فتح النافذة ليستطيع قراءة الرسالة في ضوء الصباح. فسمع صوت غناء العصافير فوق أشجار الغابة القريبة، بدا له تغريد العصافير غريبا كأنه قادم من أزمان أخرى، أزمان لم يعد ممكنا مداراتها في النسيان. كانت تلك هي الرسالة الرسمية الثانية التي يتلقاها خلال عدة شهور، في الرسالة الأولى طلب منه إخلاء

بيت الضيافة الذي كان يقيم فيه لدواعي الصيانة كما أوضحت الرسالة، ليقيم منذ ذلك الوقت في كوخ صغير لكنه مريح نسبيا خاصة مع تناقص الأصدقاء الذين كانت تجذبهم البهجة الدموية. لم يعد يرى أحدا في معظم الأيام سوى إمرأة عجوز كانت تحضر كل ثلاثة أيام لنظافة البيت الصغير. نظر للرسالة بخوف من يقين إنه إن كانت الرسالة الاولى أخرجته من بيت السلطة فلابد إن هذه الرسالة ستخرجه إلى المجهول من هذا العالم الذي لا يعرف لوطنه بديلا غيره.

كانت الرسالة من قيادة الجيش تبلغه بعبارات واضحة وحاسمة انه بحسب نصوص معاهدة السلام مع حكومة بلده فإنه لم يعد بإمكانه القيام بأية نشاط عسكري ضد جيش بلاده.وأن الدعم الذي كان يتلقاه من الجيش والحكومة سيتوقف منذ تلك اللحظة، وان أية خرق للاتفاقية سيجبر الحكومة على إتخاذ قرار بإبعاده مع بقية قواته إلى خارج حدود الوطن.

وضع السيد الرئيس الرسالة على المنضدة بجانبه وأشعل سيجارة وطفق يرقب سحب الدخان وهي تهرب بسرعة عبر النافذة، أبتسم بحزن وهو يجتر مثل سم كلمات الرسالة، إبعاده مع بقية قواته، لابد أنهم يمزحون، هم أول من يعلم أن قواته تفرقت كلها منذ أشهر منذ أن تسربت أخبار معاهدة السلام مع بلده.

بعض جنوده خلعوا بزاتهم العسكرية وعادوا إلى الوطن مع قوافل التجار والحجاج. بعد ان إستبدلوا هوياتهم القديمة بهويّات جديدة إشتروها من الحدود. بعض ضباطه إستسلموا للنسيان في بيوت الشراب في ضواحي المدن البعيدة القريبة من حدود بلاده. لم يعد فيهم من يذكر شيئا، من أمجاد الحروب الخاسرة السابقة، حين يستعيدون وعيهم في أصابيح أشجار الأبنوس.

ظل معتكفا لعدة أشهر في كوخه، لا يعرف ما يجب عليه ان يفعله، يفكر في البحث عن بعض ضباطه وجنوده القدامى والتوجه بعهم خارج الحدود الى أية دولة اخرى يشن منها حربا ضارية على حكومة بلاده، يتذكر كلام احد ضباطه: يبدو أننا خسرنا كل شئ سيدي الرئيس. ضباط الجيش الذين ساندوا الانتفاضة على حكومتك سيدي الرئيس قاموا بإجراء إنتخابات تزعم كل المنظمات الدولية التي قامت بمراقبتها انها إنتخابات حرة ونزيهة. يقولون أن الحكومة الجديدة عقدت إتفاقيات سلام مع كل دول الجوار، قاموا بمصالحة الجميع عدا نحن! قالوا أن الحكومة الجديدة لن تصدر عفوا عن رموز السلطة القديمة الا بعد ان يقدموا انفسهم الى المحكمة التي ستقرر مصيرهم بعد البت في تهم الفساد وإنتهاك

حقوق الانسان الموجهة ضدنا سيدي الرئيس! يا للمهزلة! يا لجحود الوطن سيدي الرئيس! الوطن الذي حملناه في عيوننا وقضينا زهرة شبابنا نحارب المستعمر حتى أجليناه من أرض الوطن! وكنا نقضي ليال كاملة في الخنادق، ليس لنا من ساتر من المطر والبعوض ورصاص العدو، سوى إيماننا بعدالة قضية وطننا، وحين أجلينا المستعمر، بقينا سنوات نكافح في الملاريا وحركات التمرد التى أنشأها المستعمر حتى يجعلنا ننشغل بمشاكلنا مدى الحياة. نحارب الجفاف، وفي السنة التي تلي موجة الجفاف نحارب طوفان فيضانات الأنهار الموسمية التي تخرج عن السيطرة، سرق المستعمر بلادنا، وبخل علينا ببناء سد واحد يهدئ من جنون الأنهار الموسمية. سرقوا النحاس واليورانيوم، والكولتان، حتى قضبان السكة الحديد التي بنوها لنا، لم يتركوها، شحنوها مع الحديد الخردة في بواخرهم الضخمة التي وصل بها جنودهم حين غزوا وطننا، قاموا بتفكيك الوطن كله وشحنه في تلك البواخر الضخمة، فككوا حتى الجسور القديمة التي شيدوها من حديد وطننا، وفككوا حتى تاريخنا، سرقوا تماثيل عظمائنا الغابرة وتركونا دون تاريخ، يقرأه الأطفال في المدارس، حتى إضطررنا للاستعانة بكبار السن من المعمرين لإعادة تدوين تاريخنا! سرقوا تمثال ديوغو سيرو، وتمثال إله الأرز، وإله الحرب وصانع المطر، وتمثال الملكة أورا بوكو ، ولم يتركوا لنا سوى السمتنقعات والملاريا. قمنا ببناء كل شئ، وكنا ندفع من جيوبنا لتدور عجلة الحياة، وبعد سنوات حين بدأت الحياة تزدهر، وتحركت القاطرات الجديدة التي اشتريناها بالتقسيط من الصين، والبواخر الروسية، وإستعادت المؤسسات التعليمية قوتها، وبمجرد تخرج أول دفعة من الجامعات التي أنشأناها، حتى قاد هؤلاء المتعلمون الجدد، دون خبرة ودون أخلاق، الثورة ضدنا، الكتب التي إستوردناها لهم من وراء البحار ليتعلموا الكيمياء والهندسة، ليساعدونا في إعادة الحياة الى جثة الوطن، بدلا من قراءة العلوم المفيدة، تكالب الجيل الجديد على الاشتغال بالسياسة، حتى تحولت الجامعات الى ساحات للخطابة، كأننا في الهايد بارك سيدي الرئيس! تركوا الدراسة في الجامعات التي بنيناها بعرق الكد والصبر وقروض صندوق النقد، وتفرغوا لشتمنا في أركان النقاش! ثم تآمروا مع ضباط الكلية الحربية الجدد، ممن لم يطلقوا ولا طلقة رصاص واحدة طوال حياتهم ولا حتى في رحلة صيد، ليتهموننا بالفساد! يترصدوننا حتى ونحن في المنافي بعد ان تركنا حتى ملابسنا الداخلية في الوطن! لنعيش على إعانات المحسنين في كل مكان!

إستيقظ ذات صباح ونفض خيوط عنكبوت الصباح التي غطت حتى وجهه، ثم خرج الى المدينة، لم يتذكره أحد حين عبر وسط السوق القديم، في الزمن الغابر كان يتسابق الباعة نحوه مجرد دخوله الى السوق، كان حرّاسه يحولون بينه وبين إزعاج الباعة. وكانت

النسوة بائعات خبز الذرة المحلي، الزلابية، والبيض والخضروات يغنين له أغنية محلية تم تعديلها لتتناسب مع عظمته، كانت الأغنية تصف حتى طريقة مشيته، الشبيهة بمشية الطاؤوس، وتصف وجهه المضئ بعد ان تزيل منه التجاعيد ورهق الشيخوخة. حين سقط قناع السلطة الزائفة، رأى نفسه في مرآة لا مبالاة العالم، مجرد عجوز منسي، لا يعرفه أحد. يصعب الجزم بأنه موجود على قيد الحياة حتى في أوج لحظاته تألقا وحضورا. رأى نفسه يموت بسبب الوحدة دون أنيس سوى صوت نقرات المطر على سقف قطيته، فقرر أن يغادر البلدة بمجرد حلول فصل الجفاف. قرّر أن يتجه الى الحدود الشرقية، لا يعرف لم إختار تلك المنطقة تحديدا لكنه يستطيع تفسير ذلك بمجرد شعور بالحنين، قبل سنوات أقام في تلك المنطقة لعدة أشهر أشرف فيها على تدريب قواته داخل الحامية العسكرية التابعة للبلد المضيف. كان مفروضا ان يتم اقامة معسكر لقواته في تلك المنطقة لكن تغيرت الخطة لاحقا وتقرر اقامة المعسكر في المنطقة الاستوائية القريبة من حدود بلاده. شعر لاحقا أن قراره بالرحيل لتلك المنطقة أملته ضرورة ملحة أخرى: تشتيت خطوات الموت الذي يتبعه، إغراق رائحته المميزة: رائحة عجوز أدمن إنتظار المجهول، التي يجدّ الموت في أثرها، في روائح الحياة وزخمها في تلك المنطقة الغنية بالحياة والناس، لاجئون من حروب لا تنتهي، عمال من جهات العالم الأربعة تجتذبهم مشاريع الزراعة المطرية الضخمة، روائح حقول السمسم والذرة، مهرجانات الحصاد وبداية المواسم، ليالي السمر في بيوت الشراب. دون ان تسعفه حاسة الموت السادسة التي أنقذته من الموت عدة مرات في السابق، حين تعرّض لعدة محاولات إغتيال نجا منها جميعا، بسبب عدم إلتزامه بأية برامج أو إجراءات بروتوكولية. ذات مرة فتح بعض المتمردون على سلطته النار على إحتفال رسمي، كان مفروضا أن يلقى فيه كلمة بمناسبة عيد العمّال، لكنه في اللحظات التي دمّرت فيها طلقات الرصاص المنصة التي كان سيلقي خطابه منها، كان يرقص شبه عاريا على أنغام موسيقى الماريمبا، كانت تعزفها فرقة من الهواة من جنوب القارة شاركت في مهرجان وطني للموسيقى والتراث، كان الحفل الخاص في بيت سري، كان يقضي فيه معظم سهراته الليلية السرية مع بعض المقربين منه.

حين قررأن يتجه شرقا، أملا في أن يستعيد حياته، يهزم الشعور بالعزلة، بعد تساقط آخر ورقة توت تستر عورة رغبته في إستعادة عرش تسلطه، حتى لو كان ذلك عبر أوهام البونسيانا، وروائح حمى الحب الداعر. يبدد خطواته التي يقتيفها الموت، في حمى الترحال وزحام الوجوه الجديدة وتفاصيل عالم مختلف، في القرى المتناثرة بحذاء الجبال الغارقة في الرذاذ، دون أن تنبهه حواسه القديمة الى خطوات الموت التي باتت تسبق خطواته، تقوده

خلفها، مثل كلب أليف، بسلسلة الوحدة والفراغ، وحنين أشجار البونسيانا، تضبط خطاه على إيقاع صور يتم وضعها خلسة إثناء نومه في تلافيف ذاكرته، فلا يستطيع تمييزها من صور ذكرياته التالفة. عرف أنه لن يحتاج الى إذن من السلطات كي يسافر. لو أنه ذهب الى إحدى إدارات الجيش، التي كان يستقبل فيها مثل رئيس دولة، ليطلب إذنا بالسفر، لنظر إليه المسئول بدهشة، بسبب وجود هذا الغريب الذي يرتدي ملابس مدنية في إحدى منشأت الجيش. قبل أن يعتذر له في النهاية لأنه لا يستطيع أن يجد أية معلومات عنه في الملفات الرسمية!

الحرب بين الزينة والزلال باتت شبه معلنة، الوحيد الذي كان يبدو خارج مدار هذه الحرب كان سليمان، يعيش في براءة عذريته السعيدة، التي إستطاعت ليلى أن تحدث بها بعض الخدوش وتزلزل أساس اللامبالاة التي لم تكن، في أكثر صورها تناغما مع روحه، سوى إمتداد لخوف غامض من الموت يعشش في عقله الباطن. أصبح منذ ذلك النهار يعاني إشارات مراهقة متأخرة مراوغة. حتى أنه ضبط نفسه عدة مرّات وهو يتلصص على الفتيات أثناء تغييرهن لملابسهن، أصبح يشعر بإختلاف حين تطلب منه إحدى الفتيات أن يقوم بتدليك ظهرها أو قدميها كما كان يفعل في السابق. يشعر بلذة ماكرة حين يلامس أجسادهن بأصابعه المدربة، لكنه سرعان ما يغرق في لامبالاة سعادته مجرد أن يبعد يده عن أجسادهن. يستعيد أوثان حياده العاطفي، تزداد هواجس رغباته المكبوتة، يشعر بجرح متعفن في دواخله خاصة في وجود الزلال دون أن يعرف له سببا. كان في العادة يدخل الى غرف نوم الفتيات دون حرج في أية وقت حتى أثناء نومهن. ذات مرة وجد نفسه دون أن يشعر وقد غادر فراشه وهو غارق في عرقه واقفا فوق الزلال النائمة يحدق في جسدها، ثم إمتدت يده آليا لتزيح الفستان من فوق أسفل جسدها، اكتشف انها لم تكن ترتدي ملابس داخلية، تجول فوق جسدها بعينيه من أول النهود النابته حتى البطن الجميل ليستقر فوق عضوها النائم في سكون الزغب النابت، كان سليمان يتصرف مثل شخص منوّم مغناطيسيا، كأن شخصا آخر يخرج من أعماقه ليلا ويستبيح العالم مستخدما جسده ورغباته الضائعة في اللاوعي. إمتدت يده لتلمس عضو الفتاة، انتفضت الفتاة مجرد أن لامست أصابع يده جسدها، خفف من رعبها رؤيتها لسليمان قالت : هل تريد شيئا يا سليمان؟ اعتقدت في

البداية انه يبحث عن شيء ما، قبل ان تنتبه لجسدها العاري، لم تربط في البداية بين جسدها العاري ووجود سليمان بجانبها. سليمان إنتبه حين رأى بريق عينيها ليده الممدودة في الفراغ وهي لا تزال تمسك بشبح الوردة البرية النائمة في أسفل الجسد الملائكي، هرب الشخص الآخر وإختبأ في أعماقه، وتركه وحيدا دون أن يجرؤ حتى على سحب يده التي يمدها مثل شحاذ. حين رأى وميض البرق في عينيها، تدافعت في ذاكرته صور قديمة، إخترقت لبرهة يسيرة جدار النسيان الضبابي الذي يقسّم ذاكرته، فإندلعت صورة والده لحظة موته، قبل أن يرى تفاصيل الصورة جيدا إنطبق عليها جدار طوفان السنيان، لم يفهم سليمان أن بريق عيني الفتاة الذي إخترق جدار نسيان الذاكرة العظيم إستطاع ان يفتح نافذة صغيرة نفذ منها ضوء صورة موت والده. لم يلاحظ أبدا أن ذلك البريق الذي زلزل كيانه في تلك اللحظة لم يكن سوى طاقة الموت الكامنة في عينيها والتي ذوبت بشعاع صغير منها صخور جدران لا وعيه.

سحب سليمان جسده وتراجع للخلف، ساحبا ذيولا ضوئية ملونة خلّفتها معركة قصيرة غير متكافئة مع الموت، تراجع وهو لا يزال يمد يده في الفراغ. في الخارج إصطدم بجدار صالة البيت وجدار الفناء عدة مرات قبل أن يعثر على فراشه، حين إستيقظ في الصباح كان لا يزال محافظا على مظهره التسولي، حاول إستعادة وضع يده الطبيعي ولم يستطع، نادته النسيم ليساعدها في الذهاب الى المرحاض. تشبست بيده الممدودة وبعصاها لتترك المقعد، وضعها فوق المقعد الخشبي المعد لها خصيصا فوق فتحة المرحاض وأغلق الباب. ولا تزال يده ممدودة. قالت النسيم أن عضلات يده تيبست بسبب نومه خطأ فوق يده، بعد الظهر حين لم تجدي كل المحاولات العلاجية التي قامت بها النسيم وفتياتها، من لبخة الحلبة وطحين الحبة السوداء. أرسلت الزينة لتستدعي ست النفر، ست النفر كانت إمراة وحيدة تعيش في بيت صغير على مشارف غابة السنط والهجليج، كانت تعالج كسور العظام، وتعالج الصداع والحمى بأعشابها التي تحصل عليها من الغابة. وكانت تضرب الرمل، وتغني في بيوت الأفراح أغاني تؤلفها بنفسها، فحصت يد سليمان الممدودة في الفراغ فلم تجد علة في العظام بل في القلب، رمت ودعاتها السبعة فتعلقت في الفراغ فرأت خيوط عنكبوت الموت أو الحب. ورات الجدار الذي يحجب رؤية مشهد الموت داخل الذاكرة. أخرجت من جرابها زيت الحبة السوداء وسكبته في طبق البلاستيك الذي أحضرته الزينة، ثم قرأت فوقه تعاويذها، لدهشة النسيم لم تقم ست النفر بتدليك اليد بالزيت، طلبت من سليمان خلع جلبابه ودلكت قلبه برفق، تسارعت ضربات قلبه حتى كاد يقفز خارج الجسد، كانت ست النفر تبدو وكأنها تقوم بترويض حصان جامح خارج عن السيطرة. حتى بدأت

دقات قلب سليمان العسكري تهدأ، ومع هدوء ضربات قلبه بدأت يده الممدودة في الفراغ تتراجع نحو وضعها الطبيعي، حتى إستقرت جوار فخذه.

شعر سليمان العسكري بعد زيارة ست النفر ان جدارا آخر تهاوى في ذاكرته دون أن يفهم طبيعة ذلك الجدار. إستعاد يده لكنه شعر أنه فقد قلبه الى الأبد.

بعد ذلك لاحظت الزلال أنه يتجنبها. لم يعد يساعدها في المطبخ . وأصبح يتجنب الدخول الى الغرفة التي تقضي فيها الزلال وأسمرينا الليل.

بعد مرور اسابيع من محاولة ليلى اغتصابه، وعلاج ست النفر ليده عن طريق تدليك القلب، كان سليمان العسكري لا يزال يعيش عذريته السعيدة، رغم أنه بات يشعر أن العالم لم يعد هو العالم الذي يعرفه. وأن صباحات الياسمين لم تعد مشبعة بالحنين الى نقاط مجهولة عبر الأزمنة فقط، بل بدوامات أشواق منسية كانت تكافح اعاصير النسيان والأمواج العاتية لتبرز الى وهج السطح.

لاحظت الزينة نفور سليمان من الزلال فظنت ان حيلها بدأت تنجح، كانت قد انتهزت فرصة ارسالها يوما لشراء بعض الاشياء من السوق بسبب غياب سليمان العسكري وذهبت لزيارة شيخ يسكن بجانب السوق، طلب منها ان تحضر له اسم والدة سليمان ووالدة الزلال، بذلت خلال ايام جهدا كبيرا حتى تعرف الاسماء بدون ان تثير شبهات اي انسان حول مقصدها. اعطاها الشيخ حجابا في المرة التالية وطلب منها دفنه في البيت قريبا من فراش الزلال. لكن العمل الذي دفعت من أجله ثروة صغيرة بدا كأنه يؤتي ثمارا عكسية. سليمان العسكري الذي كان يتجنب مواجهة الزلال وجها لوجه، كان سعاره للتقرب منها يزداد، حتى الليلة التي استيقظ فيها مذعورا على حلم والده وهو يقوده من يده كأنه يريد أن يريه شيئا ما، عبرا جسرا مبنيا من صخور غريبة كانت تبدو كأنها جماجم بشرية فيما مياه النهر كانت تبدو حمراء مثل الدم، ثم أشار له بإتجاه الصحراء، فرأى ما يشبه نجما يهبط من السماء، استيقظ سليمان، كان غارقا في عرقه، ودون أن يشعر رفع جسده من الفراش وإتجه مثل منوّم مغناطيسيا الى الغرفة التي تخلد الزلال فيها الى النوم بجانب أسمرينا. وضع يده فوق جبهة الزلال فإستيقظت على الفور، تعرفت عليه في ضوء مصباح الزيت الخافت الذي يضئ طوال الليل بسبب خوفها من الظلام. رأت بريق عينيه في الضوء الشاحب، عينا غريق تتشبسان دون أمل ب قشة خيوط الضوء. فنهضت على الفور وسارت معه.أمسك بيدها بقوة كأن رياحا عاتية كانت على وشك ان تقتلع الفتاة الجميلة من بين يديه. فتح باب البيت

بهدوء وخرج متشبسا بيد الزلال، شاعرا بأنه يتشبس بنسمة، تفلت من يده كلما إزداد تشبسا بها، لم ينتبه لهما أحد. كان الفجر لا يزال بعيدا. والصمت يغرق العالم، يقطعه عواء كلب عابر أو صوت الريح تحرّك الزمن الراكد فوق أغصان أشجار الهجليج، او أصوات غناء أو نحيب متقطعة كانت تصدر من بعض السكارى الذين ينامون في العراء. جلسا متلاصقين على الرمال البيضاء. الغارقة في اشباح الأشجار التي تحيط بالمكان، حين إشتم رائحة أنفاسها شعر أنه يفقد إحساسه بالعالم من حوله، يرى من خلال عيني الزلال، يتنفس من صدرها، رأى نفسه ينزل معها من جسر الجماجم ويسير معها بين النجوم، إنفصل عالمهما عن العالم، تغطيا بثوب النجوم، وتركا جسديهما يتسربان ببطء خارج العالم. كأن بساط النجوم الذي إرتفع بهما ببطء إلى خارج الزمن، كأنهما في مركبة فضاء تخطت بهما حاجز المكان والزمان الى عوالم أخرى. ساعدته ليعبر الى جسدها من ضفة متاهة الخوف التي ضاع فيها منذ اللحظة التي رأى فيها والده يعدم رميا بالرصاص أمام عينيه. يقاوم ليتخلص من الحمل الثقيل الذي يحمله على رأسه. يقاوم ليخلّص نفسه من الحبال التي تشده الى الماضي. من الخيط الذي يتدلى من ثقب في ذاكرته ويتحول بمجرد ملامسته للهواء الى شبكة عنكبوت تغطي جسده كله وتسحبه من وجهه الى ثقب الذاكرة الذي ينفتح مثل ثقب فضائي أسود يبتلع كل شئ في الفراغ. نار الرغبة، غريزة الرغبة في الفكاك من الموت، تنشئ في دواخله حواجزا مضادة، تجعله يغوص في طين الجسد كانه يبحث في حمى جنة الجسد، عن خلاص ما من القوة التي تشده الى ماضي الموت.

نظر الرقيب عبدالحي الى ساعته فوجدها تقترب من الخامسة صباحا. لم يتبق أمامه وقت طويل، يجب أن يعثر بسرعة على شخص ما ويضعه في الزنزانة قبل وصول جنود فرقة الإعدام، فجأة إصطدم بشخص متعجل، لم يتسن بسبب العجلة أن يحدق فيه جيدا أشرع سلاحه بإتجاهه فورا وأمره بالتوقف. اقترب الرجل منه سائلا عما يريد. حينها فقط رأى رجلا ضخما، له ملامح فيل متوحد، بوجه ضخم وأنف خرطومي، يرتدي جلبابا قاتم اللون ويحمل عصا ضخمة، لابد انه غريب عن المنطقة، ربما كان احد سائقي عربات النقل التي تنقل العمال والمحاصيل الزراعية في موسم الحصاد ثم يتخلف بعضهم للاستمتاع بشراب المريسة في المناطق القريبة من المزارع، قبل أن يعودوا الى مناطقهم. شعر الرقيب عبد الحي ببعض الخوف من مشهد الرجل الضخم، كما أنه كان يتوقع العثور على شخص نصف فاقد للوعي، يستعيد وعيه متأخرا في الزنزانة أو حين يواجه فريق الاعدام. لكن الرجل الماثل أمامه كان يبدو على استعداد لشراب عدة أطنان من الشراب دون أن تهتز شعرة في جسمه. فكر في التراجع لكن الوقت كان قد فات على التراجع ، فبسبب بندقيته التي أشرعها دون وعي بإتجاه الرجل، رفع الرجل يديه الضخمتين الى اعلى، أمر الرجل بالسير أمامه، لكن الرجل رفض إطاعة الأمر وسأله بخشونة ماذا يريد منه. قال الرقيب عبد الحي أن شخصا سرق سلاحا من معسكر الجيش وانه يقوم بتفتيش كل شخص مار بالمنطقة. نظر الرجل بشك، وقال لكنك لست من الشرطة كما يبدو من ملابسك. قال الرقيب عبد الحي: انني

امثل السلطة هنا، قال الرجل ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح لتحقق في الأمر؟ هذه البلاد مليئة بالسلاح وكله مصدره معسكر الجيش. كل العساكر يبيعون سلاحهم ليشربوا العرقي! فما الجديد اليوم؟ هل سرق أحدهم قنبلة ذرية؟ لم يرد الرقيب عبد الحي، شعر أكثر بأنه أختار الشخص الخطأ لكنه لم يعد يعرف كيف يعالج الموقف. كما ان هذا الرجل ليس من النوع الذي يستسلم بسهولة، رجل لا وقت لديه للموت، وربما ينجح في تأليب فريق الاعدام عليه، أو على الاقل زرع الشكوك في أنه إستبدل سجين الأمس بشخص آخر! جاءته فكرة شيطانية! سيطلق عليه طلقة رصاص بدعوى أنه حاول كسر باب الزنزانة والفرار، إصابة لا تقتله لكن تغيبه عن الوعي حتى يجد نفسه في السماء! جنود فريق الاعدام لا وقت لديهم لعلاج الموتى. يعالجون الناس بالرصاص.

كأن الرجل قرأ أفكار الرقيب عبد الحي، وعرف أنه يفكر في قتله. فقد فاجأه بحركة مباغتة. إقترب قليلا وكأنه يريد قول شئ ما، ثم وجه للرقيب عبد الحي لكمة قوية كادت تحطم وجهه، سقط الرقيب عبد الحي أرضا وبجانبه بندقيته. فيما مضى الرجل الفيل بخطوات قوية وسريعة.

نهض الرقيب عبد الحي بعد قليل، شاعرا بصداع قوي والآم حادة في ظهره، فجاة تذكره الرقيب عبد الحي، تذكر الرجل الضخم الجالس في الركن المعتم في الانداية ووجهه للحائط! رغم آلام جسمه لكنه شعر بإرتياح تخلصه من الرجل. ليس فقط لاحتمال أن يسبب له مشاكل قبل إعدامه، ولكن بدا له أن وجود مثل هذا الشخص في الحياة سيكون مفيدا له شخصيا أكثر من موته. تحامل على نفسه ومضى في بحثه، بسبب الوقت المبكر لم تكن هناك أية حياة في الشوارع المعتمة، سوى صياح بعض الديكة والكلاب الضالة.

قررأن يركز جهده في المنطقة المحيطة بإنداية النسيم أملا في أن يعثر على واحد من الغرباء الذين تبقوا في الداخل. طاف في المنطقة المحيطة بالانداية فلم يعثر على إنسان، اقترب قليلا من الانداية فسمع أصوات غناء في الداخل، لا زالت السهرة مستمرة. إختار أجمة أشجار قريبة من مدخل الانداية وكمن في داخلها. يمكنه مراقبة الانداية جيدا من هذا المكان كما أن بإمكانه جر ضحيته وإخفائها بسهولة لحين خلو الطريق من اية مارة حين تغلق الانداية ابوابها.

حتى يظهر أحد الغرباء، جلس الرقيب عبد الحي متكئا على جذع شجرة، بدأ يفكر في أسوأ الاحتمالات ان لم يتمكن من العثور على أحد الغرباء وتسليمه لفرقة الاعدام. لن يعود الى

المعسكر، سيولي الأدبار، اذا فكر في العودة الى المعسكر بدون بديل ربما يتهم بالتواطؤ مع المتمرد وذلك سيعني ضمنا انه متمرد ما دام متواطئا مع احدى حركات التمرد، ولن يكون صعبا ان يلفقوا له أية أدلة قبل تسليمه لنفس فريق الاعدام! فكر في الهروب وتحقيق حلم حياته، الانضمام لاحدى حركات التمرد، هناك عدد كبيرمن زملائه الجنود تملأهم روح التمرد، في انتظار من يشعل فتيل اليأس والتمرد، لماذا لا يشكل معهم حركة تمرد، حركة قوامها جنود الجيش نفسه، تعرف نقاط ضعف الجيش وتوجه له ضربات قاتلة. تذكر أسرته فعاد يمشّط سكون الليل من حوله بحثا عن الغريب الذي سيفديه! لو كان هناك وقت لذهب لاحضار اسرته وهربوا جميعا! فكر في الغريب الذي يجب أن يموت ليعيش هو، معظم الغرباء الذين يفدون لهذه المنطقة هم هاربون أصلا من الموت، يقتفي الموت خطواتهم عبر الجبال، وعبر القرى المنسية، في متاهة المطر، وأشواق نوّار شجر السنط، يحاولون تضليل كلب الصيد الذي يتبعهم بإغراق أنفسهم في رائحة الموت الراكد في السفوح، وأسفل الغابات المطيرة. مثل طفل صغير يحتمي في ثوب أمه من زمهرير الشتاء. يغرقون في الشراب تحت تأثير خرافة أنه أكسير مضاد للموت، لا يغمض لهم جفن ليلا قبل ان ينبلج ضوء الصباح، الموت في نظرهم مثل لص لا يجرؤ على الهجوم الا ليلا. أثناء النوم، حين يتجرد الانسان من كل أسلحته،. العصا الغليظة وسكين الذراع والسيف. ويعود أعزلا مثلما ولدته أمه .الموت هنا يسابق الحياة، ويسبقها في معظم الأحيان، يتوقف أحيانا فقط مثل الصياد الذي يحجم عن الصيد في مواسم معينة حتى يتكاثر الصيد ويتوالد، لا بد أن تزدهر الحياة أولا ليزدهر الموت. من لم يمت بالسل والجوع مات بالرصاص. الحكومة نفسها مجرد وكيل للموت. لا وجود لها الا حين يتمرد البعض، تحضر الحكومة بكامل عتادها وتمطر الجميع بالرصاص. تعدل بين الناس بالرصاص. لا تميّز بين متمرد ومواطن، بين مسلح وأعزل، بين عسكري ومدني، لدينا رصاص يكفي الجميع. لا يوجد دواء او خبز أو قلم رصاص في مخازن الحكومة، لأنها مليئة بالبنادق والرصاص. يتجلى كرم الحكومة الفائق في مطر رصاصها، رصاصة واحدة تكفي للقتل، لكنهم يمطرونك بالرصاص، كأنهم يلاحقون أرواح ضحاياهم في الموت، حتى لا تفكر في العودة مرة أخرى. والى الأبد.

في إنتظار الغريب الذي ستقع عليه قرعة القدر ليواجه فريق إعدام متعجل، لن يكترث لصراخ الغريب أنه برئ، لأن الجميع يقولون الشئ نفسه، سيردون على إعلان براءته، بمطر من الرصاص. لو كان هناك فقط إحتمال واحد في المائة أنك متمرد، فلا حل سوى الموت! لا وقت للحوار، على الأقل سيتم تخفيض عدد من يجب التفاوض معهم النهاية. إن بقي هناك شخص للتفاوض، وحتى يقرر الساسة، هناك بعيدا عن النيران، أن يجلسوا مع

الشعب ويتحاورون، تحت ضغط المنظمات الدولية، حتى ذلك الحين، سيكون الحوار بالبنادق.

وضع الرقيب عبد الحي خطته لثورة شاملة في الاقليم، سيسعى أولا لتأمين وضع أسرته، سينقلهم عبر الحدود ويبني لهم بيتا أو كوخا صغيرا، سيقوم بالسطو على مخازن السلاح في المعسكر، جزء من السلاح سيقوم بدفنه في مناطق نائية لاستخدامه في العمليات ضد الجيش الحكومي، والجزء الآخر سيقوم ببيعه لشراء الطعام لأطفاله وجنوده. حين تبدأ العمليات سيجذب ذلك الكثير من الشباب وحتى الأطفال الذين تخطفهم قوات الحكومة لتدريبهم وإرسالهم لقتال قوات التمرد. كما سيكون هناك دائما داخل معسكرات القوات الحكومية من يساعد بالسلاح والمال ومن سيهرب أيضا بسلاحه للإنضمام لحركته. قرر أن يبدأ في الصباح وفور إنتهاء مشكلة الأسير الهارب في سرقة البنادق واحدة واحدة ليسهل إخراجها من المعسكر وإخفائها. سيكون محتاجا لمستشار يقوم بصياغة اهداف الحركة. تذكر محاميا لديه مكتب في وسط المدينة، يعطي كثيرا من وقته لقضايا ضحايا النظام، دائما تلقي أجهزة الأمن القبض عليه بسبب مناهضته للنظام. ذهب الرقيب عبد الحي الى مكتبه مرة واحدة، قبل سنوات لعمل توكيل لقريب له لبيع نصيبه في قطعة أرض صغيرة كان يملكها جده. يذكر أن الرجل إستقبله مرحبا وقام بطباعة التوكيل على الآلة الكاتبة ورفض تقاضي أية نقود على ذلك لكنه طلب منه الذهاب الى المحكمة لتوثيق التوكيل. قرر أن يزوره خلال أيام إن سارت الأمور بصورة جيدة وإستطاع أن يضع أحد الغرباء

في زنزانة الأسير الهارب قبل وصول الجنود، ربما لن يعرف الأسير لم يأخذه الجنود صباحا، وحين يفهم الأمر ويبدأ في الصراخ سيكون الأوان قد فات. وسيل الرصاص سيخمد إحتجاجاته الى الأبد، قبل أن يتبينها أحد. أغمض الرقيب عبد الحي عينيه، وكنوع من التكفير عن جريمته، قرّر إعدام أية أسير حكومي يقع في يد حركته ودون أية محاكمة. خاصة إذا كان الأسرى من الضباط الذين يصدرون أوامر القتل، فكّر قليلا، وتذكر أن أوامر القتل تصدر في الغالب من أناس بعيدون جدا من القتل وأماكنه. تصدر الأوامر دائما من غرف مكيّفة، تغرق الأقدام في سجادها الوثير، لا أثر فيها للجوع والمرض الذي يستشري في كل مكان، الرطوبة تسحبها أجهزة التكييف وتلقيها في الجحيم خارج القصر، كأن الشوارع تحتاج مزيدا من الحمم، الشوارع التي يسير فيها مواطنون آليون، يطاردون سبل العيش سحابة نهارهم، وحين يأتي المساء تتحول بقية طاقة أجسادهم، الى غبار مائي يتحول في أحلامهم الى بؤرة ضوء بعيدة كلما طاردوها بحثا عن مخرج من النفق الطويل، كانت بقعة الضوء تهرب للأمام.

تذّكر قائد الحامية، شخص متعجرف، تمنى لو تمكن من أسره بعد أن يقود حركة التمرد. لن يخسر فيه ولا طلقة رصاص واحدة سيحبسه في زنزانة صغيرة ويمنع عنه الأكل والشراب، أو يضعه على خازوق! كان الرقيب عبد الحي يحقد عليه سرا منذ أن سمع أنه إرتكب مجزرة رهيبة أثناء عمله في جنوب الوطن، حين قام بإقتحام المدينة التي سقطت في يد الجيش بعد أن إنسحب المتمردون منها، قام بإعدام كل المدنيين الذين لم يحالفهم الحظ في الهرب قبل دخول قواته، حتى النساء والأطفال، حتى المرضى في المستشفى أمر بإطلاق الرصاص عليهم! إنتبه عبد الحي في تلك اللحظة لإحتمال وجود أحد عساكر الحامية داخل الإنداية، ربما يكون قد حضر بعد أن غادر هو الانداية بعد غروب الشمس! لكنه تذكر أن معظم العساكر لا يخرجون من المعسكر إلا ليلة الجمعة، بعضهم يصنعون الشراب سرا داخل الحامية نفسها، بسبب ضيق ذات اليد، بعضهم يخرجون لكنهم يعودون بسرعة بعد شراء كميات قليلة من الشراب، يخرجون من المعسكر في أعداد كبيرة أيضا في أيام الأعياد، ويغزون كل مكان، لا يكترثون لتعليمات إدارة المعسكر بالابتعاد عن بعض أطراف المدينة التي يعتقد بوجود متمردين فيها. يعرفون أن التعليمات لا تستهدف حمايتهم، بل منعهم من الانضمام لحركة التمرد ضد النظام.

شعر الرقيب عبد الحي بالنعاس، وبرغبة قوية في شرب كوب من المريسة. تسبب العرقي الممتاز في هروب الأسير! الخمور المغشوشة جيدة أحيانا، تكفيك مشقة الدخول في مثل هذه المشكلة. حين يكون متعجلا أحيانا يشتري من بعض بائعات الخمور في وسط المدينة. كان يمازحهن بنفس طريقة الرجل الذي يقرر أن كسوف الشمس بسبب غضب العناية الالهية من إضافة باعة الخمور للكثير من الماء الى الخمور. كان يتذوق قليلا من الخمر ويقول للبائعة: ألا تخافين الله! يمكنك إضافة قليل من الماء الى الخمر، لكن إضافة قليل من الخمر الى الماء، هذا حرام!

تضحك البائعة وتذكره أن شراب الخمر نفسه حرام، وانها حين تضيف قليلا من الماء، تقلل من الخمر الذي يشربه وبالتالي تخفف من الذنوب التي يرتكبها، إذ لا يوجد أية نص يحرّم من شراب الماء!

يضحك الرقيب عبد الحي ويمازحها قائلا: بائعة خمور وواعظة أيضا!

حين يشرب خمرا مغشوشة، لا يقلل فقط من ذنوبه، أيضا لا يهرب أحد، يبقى هو في مكانه، والأسير في زنزانته، حتى يحضر فريق الاعدام. حتى وإن أعطى الأسير بعض الخمر

المغشوشة، فإنهما يظلان مستيقظين حتى الصباح، لا لأنهما يشربان ماء، ولكن بسبب الغضب من تضييع المال في شرائه، وتضييع الوقت في شربه، كما يعلن الأسير في آخر حكمة يعلنها قبل موته.

كأنهم يضيفون مع الماء دواء منشّطا، يقول الرقيب عبد الحي، الذي يظل مستيقظا طوال الليل، حتى يقوم بتسليم الأسير، حين تكون الخمر جيدة، يستسلم قليلا للنوم، ويتحدث كثيرا مع الأسير، يكتشف أحيانا أنه يعرف بعض أقارب أو أصدقاء الأسير، في الصباح بعد أن يذهب الأسير الى الموت، يشعر بالحزن عليه، ويسب سرا الحكومة التي تقتل الناس دون سبب. حين تكون الخمر مغشوشة لا يكون لديه مزاج للحديث مع الأسرى، ينشغل بترتيب كوخه، يذهب كل دقائق للتبول، يشعر بالكسل من الذهاب الى المرحاض الذي يقع داخل المعسكر ويفضل التبول واقفا قريبا من السلك الشائك الذي يحيط بالمعسكر.

يحصي السيارات التي تعبر أمام المعسكر والتي تقل حركتها ليلا، أو يحصي النجوم، في الصباح حين يحضر جنود فرقة الاعدام لاصطحاب الأسير، لا يشعر بحزن كثير عليه. بسبب الخمر المغشوشة لم يتمكن من السمر معه. يقوم آليا بعد ذهاب الأسير بتنظيف الزنزانة، والبحث عن شئ ربما يكون الأسير تركه، رغم أنه لا يعثر في العادة على أية شئ له قيمة، لأن العساكر يستولون في العادة على نقود ومتعلقات الأسرى قبل إحضارهم الى الزنزانة. عثر مرة على بضعة جنيهات ملفوفة في ورقة جريدة، وضعها الرجل قبل ذهابه بصورة يمكن رؤيتها مجرد دخول الزنزانة. حين وجد النقود، شعر الرقيب عبد الحي بالحزن، عرف ان الرجل تعمد وضع النقود هناك ليجدها هو، بعد أن نجح في إخفائها من الجنود، رفع الرقيب عبد الحي يديه وقرأ الفاتحة على روح الأسير ودعا له بالمغفرة، حين فرغ من ذلك، فوجئ بصوت طلقات الرصاص! فعرف أن الأسير كان حيا حين كان هو يقرأ القرآن على روحه ويدعو له بالمغفرة!

أحيانا كان يجد برازا، ومرة ترك له أحد الأسرى حذاء محليا جديدا مصنوع من جلد النمر، إنه حذاء غال جدا، يبدو أن الأسير إشتراه في نفس يوم القبض عليه. لحسن حظ الرقيب عبد الحي كانت الخمر جيدة، شرب منها وإقتسم مع الأسير بهجته وعشائه. قبل أن يكتشف أن الأسير كان يعمل شرطيا في المدينة قبل أن يترك الخدمة منذ سنوات، كان الأسير متمردا حقيقيا هذه المرة. قبض عليه وهو ينقل مواد تموينية للمتمردين، لم يبدو عليه أية شعور بالندم على إنضمامه للتمرد ضد الدولة. كان يقول الدولة نفسها متمردة. قامت بالانقلاب على نظام منتخب من الشعب وقتلت الناس في كل مكان. دولة تقول انها تحكم بشريعة الله

ورغم ذلك يسرقون اموال الشعب. مليارات الدولارات من عائد البترول تحولت الى عمارات شاهقة في العاصمة وبعض مدن العالم. قال المتمرد للرقيب عبد الحي: هل سمعت بغسيل الأموال، هؤلاء المتدينون الكاذبون يقومون بغسل الأموال!

لم يفهم الرقيب في البداية، كان قد سمع بقصة غسيل الاموال كعمل غير شرعي، لديه فكرة كوميدية غير مؤكدة لذلك. يقوم أحدهم بإحضار جوالات من النقود، التي ربما إتسخت إثناء تهريبها ويقوم بغسلها بالماء والصابون! ثم ينشرها على حبال طويلة ويتركها لتجف! كما يفعل المصور في سوق المدينة بالصور بعد طباعتها حين يقوم بتعليقها على حبل، ضحك المتمرد وشرح للرقيب عبد الحي القصة كلها. أشار بإتجاه العاصمة البعيدة وقال: اصبحت مركزا لغسيل الأموال!

بعد أن تناول بضع لقمات من الأكل الذي وضعه الرقيب عبد الحي أمام الزنزانة، نظر المتمرد فجاة الى قدم عبد الحي الذي كان ينتعل حذاء خفيفا من المطاط الأسود المتسخ، وقال : يبدو أن مقاس قدمك هو نفس مقاس قدمي، ثم دفع له بالحذاء ليقوم بتجربته، وجد الرقيب لدهشته ان الحذاء الجميل كان على مقاس قدمه تماما. قال الأسير أعطني حذائك وخذ حذائي، لن أحتاج له بعد الآن، ثم ضحك الأسير وقال: سيكفيني حذائك المطاط للوصول الى المكان الأخير! يمكنك أن تحضر لاحقا وتأخذ حذائك المطاطي أيضا! شعر عبد الحي ببعض الحرج من قبول الحذاء، قائلا أنه لا يحتاج له، لأن الحذاء العسكري يكفيه مشقة شراء الأحذية، قال الأسير، ستحتاج له، حين تذهب لزيارة اسرتك في عيد الاضحى أو حين تزور بعض أقربائك، إنه متين، سيكون نافعا لك حتى بعد أن تترك الخدمة هنا، صنعه لي صانع أحذية بصورة خاصة ، وهل تصدق أنني لم ادفع فيه شيئا بل أعطاني الرجل بعد صناعته مالا! دهش الرقيب عبد الحي وقال: كيف ذلك؟

حكى له الرجل أنه اصطاد النمر بنفسه، وأحضر الجلد لصانع الأحذية، الذي إشترى الجلد بسعر قليل مقابل صناعة هذا الحذاء! فكر الرقيب عبد الحي أن يقترح على الرجل أن يقوم بتسليم الحذاء الى اسرته، لكنه توقف عن قول ذلك، خاف أن يثير ذكر أسرة الرجل أحزانه. لابد أن لديه أطفال صغار، سيتركهم دون عائل. فكر أن يقوم بالبحث عنهم، والسؤال عن حالهم، رغم أنه لن يستطيع مساعدتهم لكن ربما كان بإمكانه مساعدة احد أطفاله في البحث عن عمل لإعالة الاسرة. فكر قليلا وقال للرجل: لن أحتاج له، لقد عملت لفترة مع حرس الصيد في حديقة الدندر، هناك قانون يمنع إستخدام جلد بعض الحيوانات المنقرضة مثل النمور وثعبان الأصلة في الصناعات الجلدية! الحكومة لا تهتم بتطبيق هذا القانون مثله مثل

بقية القوانين الاخرى. لكن بالنسبة لشرطي او جندي يجب أن يكون هناك بعض الاحساس بالقانون، والا فلن تستطيع ان تطلب من الاخرين الالتزام به!

ضحك المتمرد وقال: ما رأيك أن رئيس النظام نفسه يرتدي مثل هذا الحذاء، لقد رأيته مرة في جهاز التلفزيون وهو يرتدي مثل هذا الحذاء! وإن كان رب البيت بالدف ضارب، فما الذي يمنعنا من الرقص!

ضحك الرقيب عبد الحي، وتلفت حواليه حذرا قبل أن يقول: منذ عدة سنوات، تغير الأمر،رب البيت هو الذي يرقص الآن، ونحن من يضرب الدف!

ضحك المتمرد وقال: أنت نفسك متمرد مثلي، تنتظر فقط اللحظة المناسبة لتحمل بندقيتك وتدخل الى الغابة!

تذكر الرقيب عبد الحي شيئا وضحك قائلا: عملت لفترة في شمال الوطن مع حامية عسكرية هناك. ذات مرة شاهدت خطابا جماهيريا لوزير ينتمي لجنوب الوطن، زار الشمال البعيد، حيث الصحراء الشاسعة، للمرة الاولى، وهاله ان المنطقة تنعدم فيها الخدمات الضرورية، قال في خطابه: الآن عرفت لماذا لم انتم الوحيدون في الوطن الذين لم تتمردوا على الحكومة!

سأله أحدهم لماذا؟

قال: لأنه لا توجد غابات في هذه الصحراء القاحلة!

ضحك المتمرد، قبل أن يعيد الحذاء للرقيب عبد الحي، حين وجده الرقيب مصرا على ذلك، وضع الحذاء جانبا، وناول المتمرد حذاء المطاط المهترئ، محذرا المتمرد بقوله: كن حذرا حين تمشي عليه، بسبب صناعته الرديئة تكاد كل مساميره تكون رؤوسها الحادة بارزة.

وضعه المتمرد في قدمه، وقال، لا مشكلة، لن يستطيع أية مسمار أن يؤذيني كثيرا مهما غاص في لحمي، فالوقت لن يسعفه!، صمت قليلا وقال: هناك صديق كان معنا في حركة التمرد، مات بالحمى قبل أشهر، حين مرض لم يكن معنا دواء، أرسلنا أحدهم ليحضر دواء ولم يعد مرة أخرى، عرفنا أنه قبض عليه، لابد انه مر من زنزانتك قبل أن يسبقني الى الموت. إضطررنا لمعالجته بالأدوية المحلية لكن حالته ساءت. الغريب أنه كان يجيد مداواة الجرحى، ويحمل معه دائما القطن وبعض المعدات والمواد الطبية التي يستخدمها في

تضميد الجروح فقد عمل لفترة من الوقت في عيادة مساعد طبي في قريتهم. فكرنا في نقله الى أقرب مستشفى رغم كل المخاطر لكن القدر سبقنا إليه. كان يحب الحياة ، وحين نخلد للنوم مساء كان يحكي كثيرا قصص قريتهم البعيدة وامه المسنة التي كان يشتاق لها كثيرا، وكان يبعث لها بكل ما يعثر عليه من مال، كان يمتلك طنبورا يجيد العزف عليه افضل حتى من بعض ممن يحترفون الغناء. كان يغني لمه ويبكي أحيانا كأنه كان يعلم أنه لن يراها مرة أخرى. كانت لديه أغنية ألفها بنفسه أثناء معاركنا مع قوات الحكومة ، وكان دائما يؤديها ،حين يعتني بمداواة أحد الجرحى، تقول كلماتها التي لا أذكرها الآن أن كل الجروح مهما بلغت درجة خطورتها وتعفنها، يمكن مداواتها، الا جروح القلب! كان يستخدم ثمار شجرة السنط في نظافة الجروح ويستخدم أحيانا عسل النحل في تضميد الجروح المتقيحة. دهش الرقيب عبد الحي حين رأى الأسير يمسح دموعه! صمت إحتراما لدموع الأسير! يا للكارثة! لقد خالط كثيرا من اهل النظام ولم يرهم أبدا يبكون، حين حارب في الجنوب ، حاربت قوات الدفاع الشعبي معهم في مناطق كثيرة. الناس كلهم يقولون ان عساكر الجيش لا يكترثون لمنظر الدم الذي يصبح جزءا من حياتهم، لكن رجال الجيش كانوا يبدون أمامه مثل المدنيين امام مجندي قوات الدفاع الشعبي، وهم معظمهم مدنيون من حزب الاسلاميون الحاكم. في حين يحاول رجال الجيش الابتعاد عن ايقاع أية خسائر في صفوف المدنيين، كان هؤلاء لا يتورعون عن إحراق قرى كاملة لمجرد الاشتباه بأن بعض المتمردين يختبأون داخلها.

قطع الرقيب عبد الحي الصمت بقوله: هل تستطيع حركة التمرد ان تحقق شيئا للناس، أم ان وجودها سيعطي الحكومة ذريعة لقتل المدنيين؟ كما تفعل في كل مناطق النزاعات؟

قال المتمرد: كلامك صحيح، لكننا نحاول أيضا حماية المدنيين. كما ان هدفنا النهائي هو تحقيق شئ من العدالة لهؤلاء المدنيين عبر تغيير النظام. الحكومة لا يهمها ان تبقى بلادنا موحدة، إنها تركز كل خدماتها في العاصمة ولتذهب بقية البلد الى الجحيم. هناك فقراء ومعدمون في العاصمة، لكن المشكلة أن الناس التي تموت بالجوع والأمراض في الأطراف لا يكترث لها احد. إن كنت تريد ان يعرف العالم بموتك، عليك أن تذهب وتموت في العاصمة، لكن حين تموت في الأطراف يكون ذلك قضاء الله الذي لا يجادل فيه أحد. لا يوجد شئ هنا، لا يوجد تعليم، لا تملك الأسر شيئا لتدفع لتعليم أبنائها، وهؤلاء الشباب الصغار يحاولون العمل في المزارع لمساعدة اهلهم، لكن الميلشيات الحكومية لا تتركهم في حالهم، تختطفهم وترسلهم لمناطق الحرب، تشغلهم بأي شئ حتى لا يصبحوا رصيدا لحركات التمرد او الثورات الداخلية. يجب ان تدفع نقودا في المستشفى لتحصل على العلاج، ورغم انك

تدفع ثمن كل شئ، لكنهم لن يعدمون سببا لارسالك للدار الآخرة. أي أنك تدفع في الواقع تكلفة موتك.

قال الرقيب عبد الحي: رأيتهم في العاصمة أيضا يعانون ويموتون دون أن يشعر بهم أحد. هناك طبقة تابعة للحكومة تحتكر كل شئ وتستفيد من كل الخدمات والبقية لا فرق بينهم وبيننا.

قال الأسير: ألم أقل لك أنك متمرد، لكن ربما تمنعك ظروف ما من دخول الغابة!

نظر الرقيب عبد الحي الى ساعته، كانت ساعة الأسير تقترب بسرعة، حتى أنه شعر بخطوات الموت تدب في ضوضاء الفجر الوليد، إعترف الرقيب عبد الحي كعادته، ودون مجد، في حضرة الشهود الذاهبون الى الموت: لقد فكرت كثيرا في ذلك. هناك جنود كثيرون ينتظرون إشارة ليتحركوا، قبل فترة زارني بعض الجنود، وفي ساعة متأخرة باحوا لي برغبتهم في التمرد وطلبوا مني قيادة الحركة! بقينا نتجادل حتى إنتشر ضوء الفجر، لم يكن هناك سجين في الزنزانة تلك الليلة. قلت لهم يجب أن نفكر جديا في اهدافنا منذ البداية ونقوم بصياغتها جيدا حتى لا ينتهي بنا الأمر مع عصابات قطاع الطرق عبر الحدود. قلت لهم يجب أن يكون معنا سياسيون، يعرفون صياغة كل شئ، من البيانات الى خطط التغيير، خطط التنمية، إتفقوا معي في أهمية وضع الخطط، والبحث عن مصادر تمويل، لكن بعضهم إختلف معي في فكرة السياسيين، قالوا ان الجنود سيقومون بكل شئ، بينما سيرث السياسيون كل شئ في النهاية. كما انهم لن يتورعوا عن التفاوض مع العدو من وراء ظهرنا اذا شعروا بوجود مصلحة في ذلك أو لمجرد أنهم لا يستطيعون صبرا على حياة الأحراش والتمرد. لقد ضاعت حركات تمرد كثيرة بسبب السياسيين. المدنيون لا يطيقون صبرا. يريدون نعيم السلطة بأسرع فرصة ممكنة، لا يبقون في الاحراش الا بالقدر الذي يلصق بهم صفة التمرد، ليجدوا شيئا يتفاوضون حوله مع النظام! انت وروحك بالنسبة لهم مجرد وسائل للوصول الى القصر، حين يذهبون الى التوقيع ، يطلبون منك أن تواصل النضال، وأنهم سيذهبون كوفد مقدمة لاستكشاف نية سكان القصر، ثم يصبحون مساعدين لرئيس الجمهورية، يلتقون الرئيس فقط في حفل اداء القسم، يرونه من بعد ذلك فقط في جهاز التلفزيون، حتى يعودون للتمرد مرة اخرى حين يكتشفون ان لا أحد يهتم بهم وان الوعود التي قطعتها رئاسة الجمهورية لهم بإعمار مناطقهم ومعالجة أسباب التمرد لا ينفذ منها أية شئ. وحين يطال التقشف الحكومي فقط مرتباتهم وسياراتهم الحكومية.

إنتبه الرقيب عبد الحي في تلك اللحظة، لصوت باب الإنداية، كان هناك شخص يحاول فتح الباب بصعوبة بسبب تمكن السكر منه، وقف الرقيب عبد الحي داخل مكمنه ووضع يده على مسدسه. وإستعد لإقتناص القادم.

بعد موسم الدرت سيذهب آدم الى المدرسة، كان سعيدا جدا وسأل أمه وهي تخض لبن الماعز لتصنع منه السمن: هل سنلعب في المدرسة؟.

قالت أمه نعم، هناك أولاد كثيرون. وستتعلم كيف تقرأ الرسائل وكيف تكتبها، حتى لا نضطر للإستعانة بالجيران ليقرأوا لنا رسائل شقيقك وخالك المسافرين، وحين تكبر ستصبح طبيبا وتعالجنا أنا ووالدك حين نمرض ونذهب لنعيش معك في المدينة، حين لا تنزل الامطار، او تندلع الحروب..

وقال آدم: وأين تقع المدينة وهل فيها أشجار وأغنام؟

قالت أمه: لا توجد أغنام ، اللبن هناك يشترونه من السوق معبأ في علب من الورق.

ضحك ادم مندهشا وقال الا يفسد اللبن؟

قالت أمه: نعم، لا يكون طازجا مثل اللبن عندنا لذلك الاولاد هناك ضعفاء لا يقوون على عمل شئ.

رغم الجفاف والحرب لكن الأمل في إستمرار هذه الحياة الوادعة كان جزءا من حياتهم، كان حياتهم نفسها، رغم أن كل شئ كان يتبدد احيانا مثلما تتبدد سحابات الصيف بفعل الرياح الموسمية، لكن الأمل في إستمرار هذه الحياة رغم كل المصاعب كان هو الأمل الذي يعيش عليه كل الناس هنا..

أعطاه أخاه الاكبر صفارة مصنوعة من جذع شجرة وعلّمه كيف يعزف عليها، علّمه كيف يضع أصبعه على ثقوب الصفارة ليتحكم في اللحن، شرح له كيف يعزف لحنا يساعده لتهدئة الاغنام والابل عند الرعي وكيف يعزف لحنا آخر لمساعدة الابل التي تضل طريقها لتعود عند سماع صوت المزمار.

في اليوم الاول عزف ادم على المزمار حتى تعب وأخلد الي النوم والمزمار في حضنه ليرى نفسه اثناء النوم وهو يحاول بنغمات مزماره تهدئة البهائم الشاردة التى أفزعها منظر طائر حديدي ينثر النار من حوله، بعد أن خرج فجأة من جوف السحاب.لم تهدأ البهائم بنغمات مزماره لكن النغمات جذبت مثل عصا ساحر أسرابا من طيور الجنة، فهرب طائر النار.

قالت أمه في الصباح وهو يجلس بجانبها في انتظار غليان لبن الماعز على نار الحطب: هذا لأنك لا تصلي قبل النوم. في المرة القادمة سيخرج طائر النار من الحلم وستراه في الصباح نائما بجانبك.

يخاف آدم من طائر النار ، سمع عنه من أقرانه في الرعي، حين يظهر طائر النار في مكان ما ينشر الخوف والدمار، تأكل النار كل شئ. ويموت كل الناس الذين يحلّق طائر النار فوقهم.

يقف وراء والده بعد أن يتناول مع أخوته عشاء من لبن الماعز وعصيدة الدخن، يصلي خلف والده، يحاول أن يبدو وجهه حزينا أثناء الصلاة وأن ينسى أقران الرعي وينسى حتى مزماره كما توصيه أمه،يركز أذنيه بقوة في الاستماع لوالده حتي لا يجعله الشيطان يتذكر الاغنيات التي يرددها مع أقرانه أثناء الرعي، ولأن الصلاة تكون عديمة الفائدة ولن يقبلها الله أذا فكر في شئ آخر أثناء الصلاة كما يقول والده.

بعد الصلاة يقطع آدم إنهماك والده مع مسبحته قائلا:

أين يذهب الناس حين يموتون؟

يسحب والده حبة اخرى من حبات مسبحته ويطرق قليلا :

...... يذهبون الى الجنة!

يعرف من طريقة رد والده المقتضبة القاطعة أنه لا يرغب في تلك اللحظة في مواصلة الحديث وأنه يريد أن يخلد للنوم.

لكن السؤال يبقى معلقا في رأسه: الجنة مكان جميل يحصل فيه الانسان على كل ما يريد، كما سمع من أمه كثيرا، طائر النار لا يريد بالناس خيرا، فكيف يساعدهم للإنتقال الى الجنة؟!

تقول والدته: دع الاسئلة الكثيرة وإستعد جيدا، ستذهب الى المدرسة يوم السبت، هناك ستجد من يجاوب على كل أسئلتك، لكنك لو مضيت تسأل نفس هذه الأسئلة ستجد هناك من يضربك بالعصا.

يشعر بالسعادة بعد الصلاة لأنه لن يرى طائر النار أثناء نومه. يستعيد المزمار من شقيقته التي تحتفظ به أثناء أدائه للصلاة، يعزف قليلا قبل النوم اللحن الذي يعيد الابل الضالة، فيرى صداه في العالم من حوله كأنه يجذب حتى النجوم المتهاوية في الصحراء.

يجلس آدم صباحا جوار أمه وهي ترتق بعض الثياب القديمة التي كانت تخص والده لتعد له منها جلبابا للمدرسة. لم تبق سوى بضع أيام يبدأ بعدها الذهاب الى المدرسة.

سيذهب آدم الى المدرسة يوم السبت.تعطيه شقيقته بعض الإرشادات حول كيف سيتصرف في يومه الأول.

إشترى له والده مركوبا جديدا، قام بتجربة الجلباب والمركوب وحقيبة الكتب التي خاطتها أمه من قماش الدمور، ثم تساءل:

هل سأذهب في اليوم الأول وحدي؟

قالت أمه أختك مريم ذهبت في العام الماضي دون أن يرافقها أحد. هل تخاف من شئ ما؟

نظر آدم بإتجاه السماء فرأى آخر سحابات موسم الخريف تعبر في ضوضاء المغيب، شعر بحزن خفي قبل أن يستعيد ثقته بنفسه ويقول:

لا ... سأذهب لوحدي!

لم يذهب آدم الى المدرسة، جاء طائر النار، ذهب وحيدا للرعي في ذلك اليوم، بقيت أخته لتساعد أمه في عمل البيت وسافر أخاه الأكبر الى المدينة. شعر آدم بقلق غامض ، كان قد نسي مزماره في البيت، شعر أنه يواجه العالم وحيدا مجردا من دعم نغمات مزماره. لعب مع أقرانه لعبة الإختباء، كان مختبئا خلف شجرة طلح حين سمع الهدير الرهيب لطائر النار.

في المساء كان قد قطع مسافة طويلة مع إثنين من أقرانه وهم يجرون دون هدى، حتى توقفوا على مشارف إحدى القرى على مشهد عجوز يؤدي الصلاة جوار خيمة في قلب الصحراء، أعطاهم العجوز ماء ولبنا رائبا وسألهم من أين جاءوا، حكى له آدم انهم هربوا حين رأوا طائر النار. أطرق العجوز مندهشا لأن الفتية قطعوا بسبب الفزع مسافة طويلة جدا، وقال انه سمع أن رجالا هاجموا تلك القرية.

آدم كان يود العودة الي البيت ليقابل أمه ووالده وأخوته لكن العجوز أقنعهم بالبقاء حتى يعرف أخبار القرية من المسافرين. وطمأنهم على أحوال ذويهم: مثلما هربتم أنتم لابد أنهم هربوا أيضا.

بعد يومين جاء أشخاص غرباء يركبون سيارة، تحادث معهم الرجل العجوز بعيدا عن الصبية، ثم نادى عليهم وطلب منهم مرافقة الرجال الثلاثة الذين سيأخذونهم الى مكان آمن لحين العثور على ذويهم.

تعرفوا عن كثب خلال الايام التالية على المكان الآمن: معكسر للنازحين جوار إحدى المدن الحدودية، يعيش مع رفاقه الثلاثة وصبية آخرين فقدوا ذويهم في غرفة كبيرة، استقبلهم بعض الرجال وشرحوا لهم كيف يتصرفون داخل المعسكر المترامي الاطراف. يشعر آدم انه يعيش في متاهة يفقد فيها القدرة على التعرف على اتجاه موقع قريته، حينما تمضي الايام يزداد حنينه الى البيت، والديه وأخوته الذين يجهل أية اخبار عنهم. يتذكر أغنامه الشاردة التي يجمعها بنغمات مزماره. يتذكر الاستعدادات التي شملت البيت كله إنتظارا ليوم ذهابه للمرة الاولي للمدرسة.

تذّكر فجأة كلام امه قبل يوم من ظهور طائر النار في القرية حين أعطته حقيبة القماش التي سيضع فيها كتبه وأوراقه. قالت له: صباح السبت قبل أن تخرج للذهاب للمدرسة سيعطيك أبوك شيئا جميلا إشتراه لك من المدينة.

فكّر بحزن: ما الذي كان والدي يريد أن يعطيني بمناسبة ذهابي للمدرسة؟ وجد ان التفكير في هدية والده يعطيه دفعة من الأمل في استعادة أيامه السعيدة. هل كانت الهدية جحشا صغيرا يستقله الى المدرسة؟ كتابا مصورا يحكي قصة فتى جاب مدنا كثيرة طالما حلم بالحصول عليه؟ هل كان قلما؟ ام ساعة يد، فكر قليلا ورجح ان هدية والده ربما كانت بالفعل ساعة يد، فقبل شهور زارهم في البيت قريب يقيم في مدينة بعيدة وكان معه إبنه الصغير، كان الصبي يلبس في معصمه ساعة يد صغيرة ملونة، كانت رؤية شوكات الساعة وهي تلاحق بعضها إكتشافا مبهرا لادم، أعطاه الصبي الساعة ليجربها ، فجاب بها القرية كلها، شاعرا بأن الزمان الذي يحس بوقعه في معصمه غير الزمان الاخر الذي يمضي طليقا الى المجهول دون أية اشارات تقيده.

قال له والده حينذاك يوم تذهب الى المدرسة سأحضر لك ساعة مثلها.

أحضر لهم أحد المشرفين في المعسكر أوراقا وكتبا وأقلاما وأخبرهم أن مدرسا سيحضر أحيانا ليساعدهم على تعلم القراءة والكتابة، فرح آدم لمشهد الكتاب الملون والاقلام وحزن حين شعر أن المسافة تزداد بعدا من حلم ذهابه الى المدرسة. كان أول شئ يجرب رسمه بقلم الرصاص، ساعة رسمها على معصم يده محاولا تذكر صورة ساعة قريبه الصبي وتخيل شكل الساعة التي أحضرها له والده ولم يرها.

لم يكن الرسم سيئا، لكن صبيا من أقرانه لاحظ ان الساعة بها علامات كثيرة للأرقام أكثر من إثني عشر رقما وأنه وضع شوكة واحدة للساعة. حاول الصبي الاخر اصلاح رسم الساعة فوضع مؤشرات للدقائق والثواني، إختلطت الأرقام والمؤشرات فبدت الساعة مثل وشم سيكون أول ما يلاحظه شقيقه الذي حضر برفقة شخص ما، كانت سنوات قليلة قد مرت، كافية لكي لا يتعرف آدم للوهلة الاولي على شقيقه.

قال شقيقه: بحثنا عنك طويلا في كل القرى المجاورة وكل المعسكرات.

عرف بعد قليل أن الرجل الذي يرافق شقيقه هو خاله عبد الله الذي لم يره قط وان سمع عنه كثيرا من والدته، من قبل مولد آدم كان خاله قد غادر الوطن ليعمل في آحدى الدول القريبة ولتبدأ خطاباته وأخباره في التباعد.

خرج آدم معهما، سيأخذناه للعيش معهما في المدينة، قالا أن شقيقته تعيش مع أسرة في احدى مدن الوسط لكي تتمكن من مواصلة علاجها. لم يسأل آدم عن سبب مرض شقيقته،

سأل عن والديه، قال شقيقه من خلال دموعه أن والديهما ذهبا الى الجنة، وأن القرية كلها أحترقت، ولم ينج سوى بعض النساء وبعض من تصادف وجودهم خارج القرية وقت الهجوم.

يريد خاله في طريق العودة زيارة القرية ليرى حجم الدمار الذي حاق بها، آدم فرح في سره لفكرة أن يرى البيت مرة اخرى، لا يصدق أن كل شئ إنتهى كما يقول له شقيقه.حين إقتربت العربة من القرية حاول شقيقه أن يزرع فيه بعض الأمل قبل أن يرى مشاهد الدمار، قال، يوما ما سنعود مرة اخرى وسيتم إصلاح كل شئ.

وقال آدم: وهل سيأتي هؤلاء الرجال مرة اخرى لحرق القرية؟

قال شقيقه: لن يحدث ذلك مرة أخرى.

تذكر آدم زريبة البهائم التي يحصنها والده خوفا من اللصوص، وقال : هل سنقوم بوضع أغصان الشوك حول القرية؟

توقفت عربة خاله أمام البيت، لا شئ في المكان، حتى الرماد الذي خلّفه الحريق تبخر في الرياح.جذع خشب واحد نجا من الحريق كانت والدته تستخدمه لتعليق إناء مصنوع من جلد الماعز تستخدمه لخض اللبن لاستخراج السمن منه. أسفل العمود رأى رأس شئ يعرفه، حفر في التراب من حوله ليستخرج مزماره.

تجول فوق البيت وهو ينظف مزماره من التراب، شعر أنه يسمع صوت نبضات الساعة التي لا بد أن والده كان سيعطيها له في أول يوم لذهابه للمدرسة.

إنطلقت بهم عربة خاله، في العربة بدأ آدم يعزف على مزماره، لم ير أغنامه الشاردة تعود من متاهتها، لكنه رأى إشارات أحلامه تتجمع من حوله مثلما رأى من قبل طيور الجنة تتجمع لتطرد طائر النار،

أنتقل آدم للعيش في المدينة، بدأ يذهب الى المدرسة وساعد خاله شقيقه في العثور على عمل. مضت سنوات واصبح آدم شابا صغيرا ورغم مرور السنوات لم يتخل آدم عن حلمه في العودة الى قريتهم، حين يطلب المدرس منه ومن زملائه كتابة قصة عن شئ يحبونه، كان آدم يكتب عن قريتهم، يكتشف انه لا يزال يتذكر كل تفاصيل الحياة التي دمّرها طائر

النار، ويختم قصته بالساعة التى لا تزال تنبض من تحت رماد بيتهم رغم مرور السنوات.
يقول أحد زملائه:

كيف تنبض الساعة لسنوات لابد أن حجارة البطارية أصبحت فارغة!

لكن آدم يخرج مزماره من جيبه، يرى أقرانه آثار الحريق ظاهرة في المزمار، يعزف عليه قليلا اللحن الذي يعرفه جيدا، اللحن الذي ينادي به أغنامه الشاردة. يقول لزميله: ثملما ظ مزماري يعزف رغم الحريق والسنوات. تظل الساعة أيضا تنبض. يشرح لهم أنه يستيقظ أحيانا في منتصف الليل على صوت نبضات الساعة.

اصبحت كبيرا يقول لشقيقه، أريد أن أذهب لزيارة نفيسة!

يقول شقيقه: نحن نعيش الان في اقصى الغرب وهي تعيش في اقصى الشرق، انه سفر طويل، الحكومة العسكرية وضعت خالنا في السجن، نحن نستطيع الان زيارته أحيانا، حين يخرج خالي من السجن سنذهب لزيارة نفيسة وربما نحضرها لتعيش معنا ان اصبحت صحتها جيدة.

لكن الخال لم يخرج من السجن، بل حدث ما هو أسوأ، كان ينام مع شقيقه في الفناء ذات ليلة، حين إقتحم البيت عدد من الرجال يحملون أسلحتهم، حين استيقظا مذعورين لم يقل شقيقه شيئا سوى ان همس له: سافر اذهب وابق مع نفيسة حتى اتصل بكم.هناك مظروف لك في حقيبة ملابسي.

إعتقل الرجال شقيقه ومضوا، لم يكن لشقيقه نشاط واضح ضد الحكومة لكنه كان يستقبل أحيانا بعض الرجال في وقت متأخر ويدور حديث هامس حول الثورة والسلاح.

خرج آدم في الصباح التالي كعادته لكنه بدلا من الذهاب الى المدرسة إنطلق الى محطة البصات في المدينة. تذكر حديث شقيقه الأكبر حول إنتشار ظاهرة النهب المسلح على طرق السفر الطويلة. طوال سنوات وبسبب تحذيرات خاله وشقيقه كان آدم يخرج كل صباح من البيت ويذهب الى المدرسة ويعود نهاية اليوم لاى البيت، كان يذهب برفقة شقيقه الى السوق أحيانا، لشراء بعض مستلزمات البيت. للمرة الأولى وجد آدم نفسه يواجه العالم وحيدا، شعر بالوحدة وبأنه يستعيد نفس لحظات الفقد والضياع وهو يغادر قريتهم البعيدة في المرة الأخيرة وهو يحمل مزماره نصف المحترق، تطارده دقات الساعة الغارقة تحت ركام البيت، والتي كان والده سيعطيها له في أول يوم يذهب فيه الى المدرسة شعر بشبح

الحرب يخيم في كل مكان حوله، تحسس آدم مزماره في جيبه، كان المزمار يعطيه شعورا بالمان، كانه تميمة تحفظ صاحبها من شرور العالم، كأن نغمات مزماره التي كان يستدعي بها الخراف التي تضل طريقها في المرعى بعيدا عنه، كانت تشتت أيضا سحب الموت التي كانت تخيم من حوله حتى في موسم الجفاف. يبدو ان المدينة تتوقع ضربة وشيكة من إحدى حركات التمرد، أو ميليشيات الجنجويد التي خرج بعضها عن سيطرة الحكومة بسبب تضارب المصالح كما سمع من شقيقه. الجنود في كل مكان خاصة وسط المدينة حيث يوجد موقف البصات الرئيسي. لم يكن يحمل نقودا كثيرة، يبدو أن شقيقه كان يتوقع أن يتم إعتقاله في أية لحظة فقد ترك له مبلغا من المال مع رسالة صغيرة يشرح له فيها كيف يمكنه العثور على نفيسة. وضع آدم النقود في جيبه ووضع الرسالة مع بعض ملابسه في حقيبته الصغيرة. أخرج المزمار من خزانة الملابس القديمة، نظفه بقطة قماش وعزف عليه قليلا كأنه يحاول تبديد سحب الموت التي تخيم فوق المدينة، وضعه بعناية في حقيبته دون أن يشك لحظة انه كان يرى مزمار حياته للمرة الأخيرة وأن الحقيبة ستضيع في الطريق إثر هجوم على البص، وأنه بدون مزماره سيعبر يوم وصوله الى المدينة التي تعيش فيها شقيقته، طريقا يربض فيه الموت بإنتظار ظهور أول قادم في الطريق المعبّد بأشواك الموت.

الساعة الثالثة صباحا، صبيحة يوم عيد الفطر، استيقظنا جميعا قبل موعد الاستيقاظ اليومي في الرابعة والنصف صباحا. رأيت وجه أمي يطل في الظلام، وحوله غلالة من الضوء مثل قمر يغطي الخسوف وسط وجهه، ويترك حوافه مضيئة. لابد أنها أعدت ملابس العيد البيضاء لي ولشقيقي، في مثل هذا اليوم ليلة العيد كانت أمي تطلب مني ومن شقيقي ان نطوف في كل غرف البيت بدخان البخور حتى لا تسكن فيه الشياطين التي يتم إطلاقها من محابسها في الليلة الأخيرة من رمضان. تذكرت مرة قبل سنوات حين اخلدنا للنوم أثناء طردنا للشياطين من المخزن الذي تحتفظ فيه والدتي بالبصل والحبوب. وجدنا فجأة شجرة معدنية بيضاء ضخمة تنمو في قلب المخزن، تسلقناها لنسقط في هوة تطل على بلاد غريبة، أشجارها وبيوتها كلها من معدن نحاسي أصفر، لم نر أية إنسان ونحن نتجول بخوف في شوارع المدينة المعدنية حتى رأينا أبي الذي كنا نحسبه ميتا ونزور قبره كل عام مع والدتي يوم العيد، رأيناه فجأة يتلصص علينا من على البعد وحين طاردناه جرى بعيدا حتى إختفى عن انظارنا، كنا نطارده ونبكي، حتى أطل علينا وجه أمي فجاة في الظلمة. كنت متاكدا اننا لم نكن نحلم كما حاولت امي إقناعنا، فقد عثرت أثناء رحلتنا العجيبة على دمية بلاستيكية كنت قد فقدتها قبل زمن طويل وبحثت عنها كثيرا دون جدوى.

لابد أن امي لم تنم طوال ليلة العيد في إنتظارنا، وهي التي كانت تقضي الليل كله مستيقظة ان كنت انا أوشقيقي نشكو من أية شئ، كنا نهيم في الشوارع ونمارس حياتنا بضراوة

تحت رعايتها وعينها الساهرة التي لم نلحظ سطوتها الا بعد أن اضطررنا للعيش بعيدا عنها! قبل أسابيع ذهبنا لزيارتها وحين لاحظنا انها كانت تبكي لحظة الوداع، كذبت عليها وقلت ان ادارة المعسكر ستسمح لنا بالعودة في عيد الفطر. كانت إدارة معسكر الخدمة الوطنية قد رفضت منح كل المجندين من الطلاب الذين أصبح أداء الخدمة العسكرية في الجيش اجباريا بالنسبة لهم ليتسنى لهم مواصلة دراستهم الجامعية. رفضت ادارة المعسكر منحنا عطلة لقضاء عيد الفطر مع أسرنا. عقدنا عدة اجتماعات ليلية سرية وقررنا الهروب من المعسكر، المعسكر يقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، كنا حوالي ثلاثمائة مجند ولا توجد سوى طريقة واحدة لمغادرة المعسكر، هي نهر النيل. هناك مركب شراعي يقف قريبا من المعسكر فكرنا في استخدامه للهرب لكنه ربما لن يكفي سوى لحوالي خمسين مجندا. معظم المجندون يجيدون السباحة. عرض النهر ليس كبيرا في موسم التحاريق. لذلك قررنا المجازفة. سنترك من لا يجيد السباحة يستقلون المركب والبقية تسبح بجانبه لضمان وسيلة للانقاذ ان حدث شئ. دفعت بأخي الاصغر داخل القارب ثم نزلت الى النهر مباشرة وسط ثلة من اصدقائي وزملائي. قبل ان نقطع حوالي عشرة أمتار سمعنا صوت صفارة المعسكر، لابد انهم اكتشفوا أمرنا، فات وقت التراجع، لكن النار اطلقت نحونا بكثافة غير متوقعة. كنا نتوقع انهم سيطلقون النار في الهواء بقصد اخافتنا واجبارنا للعودة. لكن يبدو أنهم كانوا يريدون فقط قتلنا لإرهاب بقية الطلاب الذين يخضعون للتدريب في مناطق أخرى. قام الجنود بإطلاق النيران بكثافة على القارب، كنت اسمع ازيز الطلقات من حولي في الماء فحاولت ان اسبح عميقا قدر استطاعتي، بينما تفرق زملائي من حولي. وجدت نفسي بعد فترة اقترب من الضفة الاخرى. نظرت من خلفي فلم أجد للقارب اثرا. لم يصل للشاطئ سوى حوالي عشرة من زملائي. كان واضحا ان البقية غرقوا جميعا او قضوا تحت ضربات الرصاص. لم يكن هناك من وقت للتفكير هربنا بسرعة واحتمينا بأقرب قرية. قام الاهالي بإخفائنا عدة ايام رغم مخاطر ذلك عليهم، اثناء اختبائنا عرفت بوفاة أخي لأن المركب التي ركب فيها زملائنا الذين لا يجيدون السباحة قد غرقت بعد اطلاق النار عليها وغرق كل من كان على ظهرها! كما توفي عدد كبير من زملائنا ولم يصل الى الضفة الاخرى سوى حوالى عشرة طلاب من حوالي ثلاثمائة طالب. حاول مضيفونا تخفيف الصدمة والحزن علينا، بالقول ان من الصعب معرفة عدد الضحايا وتحديد ان كان هناك ناجون من المركب الغارق، لأن كل الناجون من الكارثة سيختبئون مثلنا لبعض الوقت. كنت أبكي من هول المصيبة، حين تعرف أمي، كيف سأواجهها وأنا الذي وعدتها أنني سأرعى أخي وأحافظ عليه. في حين كانت أمي تفضل ان يترك أخي دراسته ويبقى بجوارها. لكنني أقنعتها أن كل شئ سيكون على ما يرام. كنت أشعر بالخوف من شئ مجهول، ربما بشعوري بالذنب مما حدث

لأخي، هل ستصدق أمي اننا قررنا الهروب من أجلها وحتى لا تقضي عيد الفطر لوحدها؟ قام مضيفونا بمساعدتنا على الهرب، استخرجوا لنا في البداية اوراقا ثبوتية جديدة بأسماء مختلفة. ركبنا في عربة لوري تعمل في نقل البضائع وكانت الخطة ان نبدو كأننا نعمل في العربة حتى لا يشك فينا أحد، اعطونا ملابس العمل واستبقى صاحب عربة النقل احد عماله ليعلمنا كيفية العمل، مررنا بعدة نقاط تفتيش لكن يبدو ان سائق اللوري كان معتادا على التعامل مع نقاط التفتيش فلم تواجهنا اية مشكلة ، تركنا العربة اللوري في آخر نقطة ، كانت فكرتنا ان نجد عملا في مناطق الزراعة المطرية حتى نحصل على بعض المال ثم نحاول الهرب عبر الحدود الشرقية الى أي مكان في العالم. ركبنا عربة صغيرة نقلتنا الى منطقة المزارع، لحسن حظنا صادف وصولنا بداية موسم الحصاد. لحظة وصولنا الى إحدى المدن المتناثرة بحذاء مشاريع الزراعة المطرية المترامية حتى داخل حدود الدول المجاورة. سمعنا أصوات الآت موسيقية وغناء، كان ذلك مهرجان بداية موسم الحصاد كما عرفنا. عبرت بجانبنا فرقة رقص مصحوبة بعدد من عازفي آلة الوازا والطبول. كانت الفرقة تؤدي رقصة الجالك الشعبية، كانت هناك راقصة لفتت انظار الجميع، فتاة رائعة الجمال ترتدي ثوبا من الريش والخرز الملون.

سار نور الدين وراء الموكب الذي طاف المدينة كلها، كان يشعر بانه يستعيد بعض خيوط حياته القديمة، التي ضاعت في اللحظة التي بدأ فيها الجنود إطلاق الرصاص عليهم في ظهورهم وهم يعبرون النهر. كانت الفتاة تبدو مع الفرقة مثل ملكة وسط حاشيتها، إنضم نورالدين للحاشية، لم يكن له عمل محدد، أصبح مساعدا للملكة، ويساعد الفرقة في نقل الالات الموسيقية، وحين يشقون طريقهم بصعوبة وسط جموع البشر المتزايدة. فجأة توقف الموكب على صوت اطلاق رصاص. نظر نور الدين مذعورا، فرأى الزي الأخضر الذي يكرهه، نفس الوقفة المتبلدة، لمن لا يملك ولا حتى أمر نفسه، لكنه مستعد لنشر الموت والدمار لمجرد إشارة تصدر من شخص ما. كان حاجزا لرجال الجيش، بدءوا في تفتيش الناس بقسوة وعنف، خشي نور الدين أن يتعرفوا عليه، وعلى قصة هروبه من المعسكر، نظر حوله بحثا عن زميله طارق، لم يعثر له على أثر، قالت له الملكة هامسة: يبحثون عن متمردين! كانت القوة تسد الشارع تماما مستخدمين عربات الجيش الضخمة، الا أن القوة نفسها لم تكن كبيرة وقد توزعوا في مجموعتين من الامام والخلف. فجأة تجمد الهواء، حتى أصبح التنفس مستحيلا، في رائحة مستنقع الأجساد الراكدة وحمى العرق. وساد صمت ثقيل كأن صاعقة مهولة ضربت العالم، فأفقدته القدرة على الحركة. قبل أن تتحرك زوبعة رياح مدارية قوية، وجد نورالدين نفسه في مركز العاصفة التي طحنت الحشد في دائرة

شيطانية، إقتلعت في طريقها أطنانا من الرمال وأوراق الشجر، وأبحرت في الهواء بعض الملابس المزركشة، والأعلام الملونة، وعدد من أبواق الوازا.ساد ظلام كسوف شامل، قبل أن تبدأ العاصفة في التراجع، ويبدأ ضوء الشمس يبدد ظلام منتصف النهار. إرتفع صوت الرصاص الكثيف، كان الرصاص بإتجاه رجال الجيش في المقدمة والمؤخرة. حمل نور الدين الملكة وإنطلق يعبر فوق الأجساد والهواء الكثيف، المشحون بالغبار الكثيف، شاهد رجال الجيش يتساقطون تحت ضربات مجهولة، محكمة، فيما آلة الحشد المذعور تسحق البقية وتفتح الطريق، فتناثر الناس في كل الاتجاهات. وجد نور الدين نفسه في غابة قريبة خارج المدينة، وضع الملكة أرضا، وجلس بجانبها ليلتقط أنفاسه، يشعر حين وجد نفسه بجانبها كأنه يتسلق شجرة المتاهة التى إنتهت به قبل سنوات الى متاهة المدينة المعدنية التي لاذ والده بالفرار إليها، كأنه يغرق حتى وجهه في حلم تركض فيه روحه في غابة ألوان تختلط فيها زهور ملونة مع نوافير الضوء التي تتفجر مثل ينابيع مجهولة بمجرد أن يمشي هذا الملاك فوق الأرض. كانت قد جاءت الى العام كثمرة حب لرجل غريب، جاء الى هذه المنطقة هاربا من شئ ما، وبسبب انه لم يكن يفعل شيئا طوال سنوات سوى الهرب، فقد نسي في متاهة تجواله، حتى أسباب هربه، لكنه كان حين يستعيد جزءا من وجهه في المساء، يشعر بأمان غريب مجرد أن ترتفع صوت دقات طبول بعيدة تعلن قرب ظهور القمر، ليبدأ يحكي تفاصيل حياة غريبة، لم يكن متأكدا إن كانت تلك التفاصيل تخص حياته هو أو حياة أناس آخرين إلتقاهم في تجواله عبر العالم. كانت ذاكرته تتبدد مثل سحابات الصيف حين يرى السلطة التي تعبر في الشوارع لتحصي أنفاس البشر، يستعيد فورا نسيانه السعيد، كآخر خط دفاع له تجاه العالم. ذات مرة إلتقى الغريب والدة أسمرينا، كانت هي ذاهبة الى سوق المدينة تحمل بضاعتها القليلة من حلوى السمسم، وعجينة الفول السوداني، وكان هو هاربا هذه المرة من السلطة التي كانت تفتش الناس والبيوت بدعوى البحث عن متمردين. كانت من اللاجئين الاثيوبيين، جاءت الى المنطقة منذ سنوات مع شقيقها هربا من الحرب في الهضبة الاثيوبية. ذهب شقيقها للعمل في الخرطوم وبقيت هي، لأنها شعرت لأول مرة في حياتها بالأمان في هذه المدينة الصغيرة. رغم أن طبول الحرب ستتبعها بعد سنوات حتى الى هذه البلاد الآمنة. أقنعها الغريب بالزواج، وأقنعته بوضع عصا الترحال. فأصبح زوجا أليفا. لا يكاد يغادر عش الزوجية، رأى بعيني زوجته، عالما جديدا كان يفتقده في تجواله، في متاهة الفصول، لكنه حافظ على حذره وخوفه المجهول من السلطة، كان يقضي اليوم كله في تحصين البيت وإغلاق أية فتحات في الجدران، قد يتسرب منها الصوت، وقام بتثبيت قطع من الزجاج فوق جدار البيت حتى لا يقفز أحدهم داخل البيت مساء. وفي المساء يقوم مبكرا بإغلاق باب البيت جيدا ويضع من

خلفه نصف أثاث البيت وأية قطع صخور أو جذوع أشجار أو اية اشياء غير نافعة يعثر عليها حين يخرج متلصصا من البيت أثناء النهار، كانت زوجته تمازحه أحيانا قائلة: إن من الأسهل عليه بناء الجدار وإغلاقه في مكان الباب بدلا من كل هذا التعب اليومي! حين يخرج لرؤية العالم نهارا، كان يخرج بحذر بعد أن يتلصص من الفتحات الصغيرة في الباب الخشبي ليتأكد من عدم وجود شخص ما، يختبئ كلما رأى قادما من على البعد، حين يجد أن شخصا ما يتكرر مروره أمام بيتهم، كان يدخل الى البيت ويراقبه سرا، يقوم برسم وجهه على الجدار بقطع الفحم، يتوهم أن الرجل مرسل من جهة ما، ورغم ان الرجل الذي يكون غالبا يسكن في نفس المنطقة او يعبر فيها بسبب عشيقة، او قاصدا بيت شراب إعتاد عليه. لكن مجرد رؤية شخص ما يعبر امام بيته مرتين كان كارثة بالنسبة للغريب. إمتلأ جدار البيت بوجوه العابرين، كان يشعر ببعض الهدوء حين يقوم برسم صورة مطارديه، كانه يقوم بتثبيت أجسامهم فعلا على الجدار وليس مجرد صورهم التي تشبه رسومات أطفال المدرسة التي تزين جدران أزقة المدينة. حين ترسله زوجته الى السوق كان يخفي وجهه في العمامة، تبرز فقط عيونه التي تكاد تقفز في الفراغ لتتفرس في الناس وتحفظ صورهم في ذكرته قبل تفريغها في ذاكرة الجدار.قبل ان يعود الى البيت ليواصل بناء تحصيناته، يعيد ترميم الفتحات الصغيرة في أسفل الجدران التي تفتحها الفئران، حين جاءت أسمرينا الى الدنيا، وبعد خروج القابلة من البيت، تسلل على اطراف قدميه، حتى وقف فوق المخلوق الصغير الغارق في الصراخ، دهش في البداية دون أن يفهم أن هذا الطفل يخصه، تلفت حواليه كأنه يبحث عن الشخص الذي نسيه في المكان. شعر كأن وجود هذا المخلوق الغريب داخل البيت ربما نجم عن ثغرة في خطته الدفاعية، فعاد لمراجعة كل شئ، كان كل شئ في مكانه، ولا توجد ولا حتى فتحة صغيرة تعبر منها نحلة الى البيت. ثم عاد مرة اخرى ليعد شيئا لزوجته وكان يعود بين الفينة والأخرى ليتأمل المخلوق الصغير الغارق في صراخه. دهش حين رآها تلتصق في ثدي امها، تراجع للخلف كأنه تذكر شيئا ما. علّمته زوجته كيف يعتني معها بالطفلة، كيف يعد لها اللبن، وينظفها من الغائط.

حين إعتاد على الطفلة، أصبحت هي حياته، يجلس طوال اليوم يراقب كل حركاتها، حين تخرج زوجته لعملها في السوق، كان يجلس امام الطفلة، يعد لها وجبتها، يعرف ميعاد كل شئ تحتاجه، يجلس بجانبها طوال اليوم، الطفلة كانت تكف عن الصراخ في وجوده، وتملأ الدنيا صراخا ذا ما ابتعد عنها قليلا، ذات يوم قام بتجهيز غذاء الطفلة وألقمها الزجاجة في فمها، راجع تحصينات البيت حتى تكمل الطفلة شراب اللبن، ثم فجاة خطر له شئ ما، أخذ عصاه ، وأصلح من وضع عمامته في رأسه، في تلك اللحظة سمع خبطا على الباب. تسلل

بهدوء الى الباب مختبئا خلف الجدار ثم نظر من خلال فتحة صغيرة الى الخارج، فرأى شخصا غريبا واقفا في المكان، لم يتعرف على وجهه في معرض الوجوه المرسومة على الجدار. إنتظر قليلا، عاد الرجل لطرق الباب مرة أخرى، ثم نظر حواليه وغادر المكان. بقي عبدالله يراقب من فتحة الباب لبعض الوقت، حتى سمع صراخ طفلته، إتجه للداخل ليجلس مع الطفلة، لكنه فجاة غير إتجاهه وإنطلق خارج البيت .

حين عادت زوجته من السوق وجدت الطفلة غارقة في الصراخ حتى جف جسمها. بذلت جهدا كبيرا لتهدئ الطفلة وتنظفها من الدموع والغائط. أما عبدالله فقد إختفى دون أثر، رجّحت أنه يقضي أمرا ما وسيعود، لكن الأيام مرت ولم يظهر له أثر. بحثت عنه دون جدوى في كل مكان في المدينة، في الغابات القريبة وبيوت الشراب، لم تعثر له على أثر كأنه تبخر في الهواء.

كانا يشعران بالجوع، جمع نورالدين بعض ثمار الدليب وجاء بها الى أسمرينا، كان الرصاص لا يزال يدوي من على البعد. جلسا في صمت، كانت أسمرينا تجلس بعيدة منه في البداية، ثم بدأا يقتربان من بعضهما، كلما تدوي رصاصة من على البعد كانت تذوب مسافة اخرى بينهما. كان ينهار حاجز من الحواجز التي تقف بينهما، يمصان ثمر الدليب، ويتركان للعيون تذويب بقية المسافة بين جسديهما، فجأة سمعا صوت إنفجار يدوي في الافاق. إلتصق الجسدان، تذكرت اسمرينا والدها، رأت في نور الدين شيئا من صورة والدها التي تحتفظ بها منذ طفولتها الباكرة، الحنان الذي كان يتدفق من نظراته الحائرة، المشتتة في المجهول حين كان يجلس اليوم كله بجانبها. فإلتصقت صورته بذاكرتها. لم تزحزحها حتى السنوات، حتى غيابه الطويل. حين حكت كيف ظلت أمها تبحث عنه طوال سنوات، تساقطت قطرات دمع فوق خديها. كان نورالدين يمسك بيدها. يشعر كأنه يبكي بعينيها، شرح لها أنه يجب أن يخرج من المدينة بسرعة قبل وصول قوات الجيش الى المنطقة. طلبت منه أن يعودا الى وسط المدينة لتبحث عن رفاق فرقتها. في الطريق شاهدا المتمردين ينسحبون ، بعد أن غنموا عددا من عربات الجيش وأسروا عددا من الجنود. عثروا على الفرقة في سوق المدينة وعثر نورالدين على طارق، الذي صرخ بأعلى صوته فرحا حين رأى نورالدين فقد مات عدد من الناس، حين فتح رجال الجيش النار دون تمييز بعد هروب المتمردين.

كان بعض ذوي الموتى يسحبون جثث موتاهم من مخلفات بقايا المهرجان، ملابس ملونة، آلات موسيقية، أحذية محلية الصنع وركام بقايا أطعمة تركها الباعة عند بدء إطلاق النار.

حين ساد هلع في وسط المدينة بسبب شائعات قرب إقتحام قوات كبيرة من الجيش للمدينة. فقد نورالدين اثر الملكة في الفوضى، أقنعه طارق ان يغادرا بسرعة ويعودا في وقت لاحق للبحث عنها. ، في طريقهم خارج المدينة الى مزارع الذرة والسمسم. شاهدا عربات الجيش تتجه الى المدينة. إختبأا في الغابة القريبة حتى توارت عربات الجيش عن الأنظار. قال نورالدين، قتلوا عددا من الناس بعد هروب المتمردين وسيواصلون القتل اثناء بحثهم عن المتمردين الذين ربما لا يزال بعضهم يختبئون في المدينة. قرر نور الدين العودة للبحث عن الملكة. لكن طارق اقنعه أن رجال الجيش ربما يفتشون البيوت بحثا عن متمردين لكنهم لا يعتدون النساء. لم يقتنع نورالدين وقال: إنهم يعتدون على الجميع بل ويغتصبون النساء ويقتلون الأطفال. كان نور الدين خائفا. ولم يقتنع بالذهاب الا بعد ان اقنعه طارق انه سيعود معه في اليوم التالي للبحث عنها.

حين جاءا في اليوم التالي عرفا ان بعض المدنيين قتلوا اثناء اطلاق النار العشوائي لرجال الجيش وتفتيش المنازل بحثا عن متمردين، كما انهم القوا القبض على عدد من رجال المدينة. لكنهما لم يعثرا على الملكة ابدا، شعر نورالدين باليأس، حاول طارق أن يخفف عنه يأسه بالقول أن البحث عنها لن يكون صعبا حتى وان اضطرا للانتظار حتى يحين موعد المهرجان القادم.

بعد نهاية موسم الحصاد، أرشدهم احد زملاء العمل الى رجل يقوم بتهريب الناس عبر الحدود، طلب الرجل من نور الدين دفع مبلغ كبير من المال، بعد مساومات استطاعا انقاص المبلغ قليلا، أخبرهم بأنه سيحضر بعربته لاصطحابهم الى منطقة قريبة من الحدود حيث سيقوم بتسليمهم الى شخص آخر سيقومب إخراجهم عبر الحدود.أخبرهم انهم سيقضون الليل في إنداية قريبة من الحدود سيخرجون منها فجرا للسفر، أبلغهم أنهم سيتحركون بحذر واحدا واحدا من الانداية الى نقطة تجمع سيخبرهم بها فيما بعد حيث سيقوم شخص آخر بإنتظارهم هناك. طلب منهم أن يتصرفوا بعفوية وكأنهم عمال حصاد يريدون قضاء بعض الوقت في نهاية الموسم في بيوت الشراب. قبل العودة الى مناطقهم. شرح لهم أنه بسبب المتمردين وعصابات تهريب السلاح والبشر، فإن أجهزة أمن الحكومة وجيشها يراقبون المنطقة.

تلك كانت الليلة التي جعله فيها القدر أحد الرجال السبعة الذين ستقع على احدهم قرعة الموت رميا بالرصاص، بدلا من اسير هرب، بسبب استسلام حارسه لخمر جيدة أخرجته مؤقتا من العالم، وفي الليلة التي دخل فيها الى الانداية مع الرجل الذي سيقوم بتهريبهم

خارج الحدود وزميله طارق، إشتم نورالدين روائح نهار مهرجان بداية موسم الحصاد، شعر من دقات قلبه أن الملكة، التي بحث عنها طويلا دون جدوى، كانت قريبة من هذا المكان، وأنها تختبئ من خلف رائحة المهرجان التي تفوح في المكان، س

أل المهرب ان كانت هناك منطقة سكنية حول الاندابة فرد قائلا أن الانداية تقع بعيدا قليلا عن المناطق السكنية، لكن هناك بعض الاحياء العشوائية تقوم في الجانب الاخر بعد غابة السنط.

فجأة رآها توزع المشروبات على الزبائن، لا ينقصها سوى ثوب الخرز والريش الملون لتصبح ملكة على كل مواسم الحصاد. اشار لها الرجل الذي سيقوم بتهريبهم، فجاءت لتقف بجانبهم، مد نورالدين يده ليصافحها، وقال قبل أن تنظر في عينيه لترى بريق الحزن الذي إنطبع في ذاكرتها يوم المهرجان. الملكة ينقصها ثوب من الريش والخرز!

صرخت أسمرينا : يا الهي، لقد فقدت الأمل في أن اعثر عليك!، رأت نور الدين الذي أنقذ حياتها يوم المهرجان. حكت له أنها هربت في نفس اليوم مع فرقتها، وأنها كادت تفقد حياتها بسبب اصرارها البحث عنه قبل ان تهرب وتختبئ لعدة ساعات في أحد بيوت المدينة. بعد أن إقتحم رجال الجيش القرية واطلقوا النار عشوائيا على المدنيين. وان عازف الوازا توفي في إطلاق النار العشوائي. وأن قوات الجيش ألقت القبض على عدد كبير من المدنيين. وأتهمتهم بالعمل مع المتمردين. أخبرته انها أرسلت رجال فرقتها الذين جابوا المدينة كلها دون أن يعثروا له على أثر.

سألت نور الدين الى أين يذهب، ولأن المهرّب حذرهم من قول أية شئ حول رحلتهم، اكتفى نور الدين بالقول انهم سيقضون بعض الوقت في المنطقة. نور الدين حين رأى أسمرينا فكر في إلغاء السفر، والبقاء قريبا من الملكة. فكر في أن يصارحها برغبته في السفر، ربما ترافقه. لكنه فكر أن الرحلة ربما تكون خطرة عليها وان من الافضل ان يذهب هو أولا ويتفق معها على أن تلحق به أو يعود اليها.

احضرت أسمرينا الطلبات وجلست بجانبهم وشاركتهم الغناء، كانوا يجلسون في ركن بعيد في الفناء، كانت المرة الأولى التي يتذوق فيها الصبيّان شراب المريسة. شربا في البداية بخوف وحذر وبعد تشجيع من الرجل المهرّب. ثم حين بدأت الصور تختلط أمام ناظريهما فارقهما الخوف والحذر. غنى نورالدين مع الفتاة دون أن يلاحظ هو أو صديقه أو المهرب خطر الموت الجاثم في الخارج داخل أجمة أشجار القنا.

كان واضحا أن الزينة خسرت معركة سليمان العسكري، دفنت خسارتها في قلبها، وحولت طاقة الحقد والهزيمة الى حب خادع، فسعت للتقرب من الزلال، حين تذهب الى السوق لشراء مستلزمات الاندابة ولارسال النقود لاسرتها كانت تشتري للزلال هدايا صغيرة، إكسسوارات بلاستيكية للشعر، طلاء للأظافر، قلّامة للأظافر، تدعوها لتستخدم معها دهان تبييض البشرة، او دهانات الشعر. إشترت من رجل في السوق أوراق نبات سام وجففتها سرا وحفظتها بين ثيابها. زعمت للرجل أنها تريد استخدام السم للقضاء على الفئران التي تملأ مخزن الحبوب في بيتها. نصحها الرجل ان تطحن الأوراق بعد تجفيفها وتخلطها مع حبات الذرة وتضعها في المخزن.. الزينة عرفت أن موت الزلال فجأة ربما يثير الشكوك حولها خاصة وان الجميع كانوا يعلمون بالمعركة الصامتة بينهما، لذلك فكرت ان تنتظر فترة من الزمن تتصرف أثنائها بصورة عادية وكان أمر الزلال وسليمان العسكري لا يهمها، حتى ينسى الناس حربها الخفية مع الزلال.ثم تضع كميات قليلة جدا من السم أملا في ان يؤدي ذلك الى مرضها وليس الى موتها. كانت تخاف من فكرة الموت. رغم كراهيتها الشديدة للزلال. كانت تعرف أن الزلال تحب أكل عجينة الفول السوداني، كانت تعطيها بعض المال و تطلب منها أحيانا حين تذهب الى السوق لشراء مستلزمات الاندابة أن تحضر لها عجينة الفول السوداني التي تبيعها النسوة في سوق المدينة. كانت الزلال تضيف لها قليلا من السكر وتأكلها بعيدا عن عين النسيم خشية ان تظن النسيم انها تأخذ عجينة الفول

السوداني من المطبخ. وجدت الزينة ان تلك ستكون فرصتها الوحيدة لتدس لها السم. إنتظرت أياما طويلة املا ان تطلب منها الزلال إحضار الفول السوداني من السوق. لكن الزلال بدا عليها كأن الحب قد أغناها عن كل شئ، فكرت أن تحضر لها قليلا من عجينة الفول دون أن تطلب الزلال شيئا، لكنها شعرت بالرعب حين تذكرت انها لاحظت أن الزلال وسليمان الاعرج كانا دائما حين يخرجان سرا بعد أن ينفض سامر الانداية في وقت متأخر من الليل، كانا دائما يحملان اكياس اللب او الفول السوداني معهما. خشيت ان قامت بإعطائها عجينة الفول ان ترجئ أكلها حتى تخرج مع سليمان ليلا وويأكلانها سويا! قررت ان تفكر في طريقة أولا لإبعاد سليمان لبعض الوقت من الانداية أو أن تفكر في شئ آخر للتخلص من الزلال.

وكأنها كانت تشعر بفداحة الجريمة التي ستقدم عليها. فبدأت في كنس آثارها حتى من قبل ان تقع. تراقب الزلال وسليمان سرا. تغرق نفسها في العمل، تشارك في أية عمل حتى تلك الأعمال التي لم تكن تشارك فيها. لاتعطي لأي كان فرصة ليراها الا وهي غارقة في العمل، تضع قناع إبتسامة دائمة، وتدفن كل حواسها في العمل، تبقي فقط أذنيها تلتقطان دبيب النمل في البيت، وانفها يلتقط أدق الروائح في المكان. تدرس عادات عدوها، من خلال الأصوات والروائح التي تصدر عنه. حتى وهي تجلس مع النسيم تطلب نصيحتها لحل مشكلة ما،تبقي إذنيها مفتوحتين وانفها مشرعا لأية روائح جديدة. تشعر بنوع من السكينة حين تكون الرائحة الفاترة لنوار السنط: رائحة الزلال، تهب قوية داخل البيت، تشعر بالقلق حين تتراجع الرائحة أثناء النهار، تحاول تتبع رائحة سليمان العسكري لتعرف إن كان قد خرج مع الزلال، تكتشف بذهول ان سليمان العسكري، تميزه أثناء النهار رائحة التمر الهندي، بينما يترك من حوله مساء رائحة حيوانية تشبه رائحة ضبع، لا تلاحظ أن تلك لم تكن سوى رائحة الموت، التي تتراجع نهارا تحت ضغط رائحة الحياة، لكنها تبق في ظلال رائحة شجرة التمر الهندي، مساء تختفي رائحة نوار السنط من البيت، تخفي الزينة قلقها الشديد خلف إنهماكها في خدمة الزبائن. تصبح الإنداية مثل خلية نحل، لا وقت ولا حتى للحب، تشعر انها تحقق تقدما حين ترى نظرات الإمتنان من النسيم ومن رواد الإنداية لتفانيها في العمل. إذا غابت للحظات في المرحاض أو لتلتقط انفاسها أمام المرآة، تبدو الحياة في الخارج كأنها ستتوقف تماما. يختلط كل شئ، ويصطدم حتى السكارى ببعضهم، تختلط موسيقى الفرح التي تعزفها أسمرينا مع بكاء السكارى الذين يمد الشراب أياديه الأخطبوطية داخل ذاكرتهم وينتزع أكثر الذكريات المدفونة حزنا، ويدفع بها للواجهة. يتذكر شاب صغير، هرب من زنازين التعذيب بعد مشاركته في إنتفاضة ضد السلطة، يتذكر أسرته

وحبيبة صغيرة، تركها على وعد أن يلتقيا الى الأبد. يتذكر أصابيح ازمنة غائرة في الذاكرة، تترامى حتى حدود صحارى النسيان. حيث يعود الضوء الى منابته المجهولة. رأى والديه يتألمان في صمت، رغم ان سنوات كانت قد مرّت منذ أن خرج شقيقه الأكبر ذات صباح من البيت ولم يعد مرة أخرى أبدا، كان ناشطا مع زملائه في الجامعة في تنظيم برامج ذات واجهة أدبية لكن الغرض منها كان مناهضة النظام العسكري. كان شقيقه هو أمل والديه في إستعادة حياتهما الكريمة. قبل سنوات حين دقّت مارشات الإنقلاب العسكري، أحيل الوالد للتقاعد رغم أنه كان في قمة عطائه ونشاطه. تراجعت حياتهم من بعد ذلك، وأضطر الابن الأكبر للبحث عن عمل بجانب دراسته ليساعد في إعالة الاسرة، في اللحظة التي إختفى فيها شقيقه الأكبر، إنتبه الرشيد للمرة الولى لخطواته التي بدات في إقتفاء خطوات شقيقه، رغم أنه كان بدأ ذلك فعليا قبل إختفاء شقيقه، حين كان يستمع الى أحاديث وأشعار شقيقه التي يقرأها على مسامع زملائه. تصبح الانداية مثل لوحة سيريالية يختلط فيها كل شئ، حتى تعود الزينة مرة أخرى، فتبدأ فوضى الجنون في التراجع، يرتفع صوت الموسيقى التي تعزفها أسمرينا على الربابة. ويتراجع الحزن الى منابت الدمع، وترتفع وتيرة إيقاع الحياة، كأن عالم الانداية يستعيد خيطا مجهولا يضبط تناغم مكوناته. يسير الحزن والفرح في المكان مثل فرسي سباق، حين يحدث شئ ما يخل بتوازن الفرح والحزن، تختلط الألوان كلها، يستعيد المشهد سرياليته السعيدة، كأن السكارى يكتشفون نعيم الفوضى المفاجئة. لا توجد حدود بين الأشياء، يضحك السكارى ويبكون في نفس اللحظة. يضيع صوت ربابة أسمرينا في بحر الفوضى، يبدأ الصمت فجأة ينبت في كل شئ، مع رائحة نوار السنط، حتى تعود رائحة نوار السنط تفوح من حولها. الزينة قررت أن تحاول دس جرعات صغيرة من السم للزلال في كوب الشاي، الذي تشربه الزلال صباحا. يوم الأربعاء كان هو اليوم الذي تقوم فيه الزينة باكرا بنظاغة البيت وغسيل الاواني وعمل الشاي. النسيم تحب شراب الشاي مع الحليب صباحا، تعد الزينة أولا كوب الشاي للنسيم وتحمله بنفسها أو ترسله مع أحدى الفتيات للنسيم التي لا تغادر مقعدها في الصالة الا لتذهب الى المرحاض أو حين تخلد للنوم. بعد ذلك تدعو الزنية الفتيات وسليمان العسكري، يحضر كل منهم لوحده وأحيانا يتصادف حضورهم جميعا، أحيانا يجلسون بجانبها لتناول الشاي. وفي أحيان أخرى خاصة حين يكون الجو قائظا، يأخذون أكواب الشاي ويذهبون للجلوس وشراب الشاي في صالة البيت أو في الفناء تحت ظلال أشجار التمر الهندي.

بعد أيام وجدت الزينة فرصة سانحة حين طلبت الزلال كوب الشاي ثم خرجت من المطبخ لتحضر علبة بسكويت من غرفتها، وضعت لها الزينة جرعة صغيرة من العشب السام، الذي تحتفظ به في جيبها. حملت الزلال كوب الشاي وخرجت لتجلس في الخارج مع سليمان. سار كل شئ طبيعيا، لم يظهر تغيير على الزلال. الزينة بذلت جهدا كبيرا حتى لا يلاحظ أحد توترها. من حسن حظها أن رجلي شرطة زارا البيت، أصدرت النسيم إشارة التحذير، فقامت الفتيات بسرعة بإخفاء أدوات صنع الخمور، وترتيب شكل البيت ليبدو بيتا عاديا. لحسن الحظ أن رجلي الشرطة كانا تابعين للجيش.

أوضحا أنهما يحققان في إختفاء بعض الأسلحة من معسكر الجيش. تحدثا مع سليمان العسكري، وطلبا منه أن يصف لهما بعض الاشخاص الذين حضروا للإنداية في الأيام الماضية. أوضحا أن المنطقة تعج بالمتمردين. دعاهما سليمان العسكري لشرب القهوة. بدا عليهما التردد، ثم قال أحدهما، شربنا القهوة قبل خروجنا من المعسكر، ثم أضاف مبتسما، ألا يوجد شئ أقوى قليلا من القهوة!

ضحك سليمان وأحضر لهما المريسة. حين إنتصف النهار، كانا قد شربا قدرا كبيرا من المريسة وتناولا طعام الغداء، لكن العودة للحامية بدت لهما مستحيلة.

إتخذ أكبرهما قرارا، إذا تأخرا أكثر من ذلك سيواجهان محكمة عسكرية. قال الجندي الآخر: الضابط يعرف أن إبنك مريض، يمكنك أن تقول انهم اتصلوا بك لأن إبنك في المستشفى، وبالطبع يجب أن أرافقك فأنت صديقي!

كرر الجندي الثاني عبارة: أنت صديقي عدة مرات، كأنما ليقنع نفسه أنهما بالفعل أصدقاء. يبدو أن الجندي الآخر إقتنع بفكرة مرض ولده أكثر من إقتناعه بفكرة أنهما أصدقاء. رغم أن الجندي الآخر مضى يعب المريسة، ويكرر عرض صداقته.

لقد شهدنا سويا مصائب كثيرة وتعرضنا لعقوبات ونجونا سويا من كمين نصبه المتمردون داخل الحدود الاثيوبية، وحين جرحت كنت أنت أول من مزق قميصه العسكري ليضمد جراحي، فكيف لا أقف معك في محنة مرض إبنك، هذا أقل شئ أقوم به، أذهب معك الى

المستشفى بل وأنام بجانب الصغير معك على الأرض حتى يستيقظ من الحمى، الأطفال تصيبهم الملاريا بسهولة في هذه المناطق بسبب كثرة البعوض، لا توجد حكومة تقوم بردم البرك والمستنقعات التي يخلفها المطر وحتى في موسم الجفاف يتوالد البعوض في كل مكان. سأقضي الليل معكم في المستشفى، تفوح من المستشفى رائحة كريهة، والمرضى يشكون من غلاء الدواء والغذاء. الحكومة مثل التجار تبيع لنا الدواء في المستشفيات التي بنيناها من عرقنا ودمنا! يجب أن يمنحنا الجيش أوسمة لأننا لم نتمرد حتى الآن! يقولون أن الممرضات في قسم الولادة يلقين بالأجنة الميتة مع فضلات المطبخ التي يلقيها الطباخون في الفناء، لذلك يقضي الذباب والفئران شهور عسلهم في فناء المستشفى!

كان الجندي الآخر نصف نائم، لكن الجندي الثاني واصل حديثه على كل حال. إنني أشكرك لأنك الوحيد الذي توقف حين سقطت أنا جريحا، لا ذقية الأنذال بالفرار، لو أننا كنا في الجانب الآخر مع المتمردين لوقف الجميع معي حين جرحت وحملوني على اعناقهم! لكن في جانب الحكومة لن يقف أحد حين تجرح! ألم تسمع بأسرى الجيش الذين وقعوا في يد إحدى حركات لاتمرد، ولأن الحكومة شمغولة بقضايا أهم لم تشأ متابعة قضية الاسرى أو محاولة إطلاق سراحهم وحتى يتم إغلاق هذا الملف، أعلنت الحكومة أن الاسرى إستشهدوا أثناء العمليات! وقامت بتسليم ذويهم مخصصاتهم ومستحقاتهم الأخيرة!

يا لطيبة هذه الحكومة! يصرفون مستحقاتنا حتى ونحن موتى! يمكنك ان تموت مطمئنا الان، سيعلنون ذلك في وسائل الاعلام: ستصبح مشهورا! لا تتاح للكثيرين فرصة ظهور اسمائهم في وسائل الاعلام، لكننا أكثر حظا من كل الناس المغمورين الاخرين الذين لا يذكرهم أحد أثناء حياتهم أو موتهم! حتى أثناء حياتهم، لا تبدو عليهم مظاهر الأحياء! مرض وفقر وجوع، وأسمال بالية أفضل منها الكفن الجديد الذي تشتريه لك الدولة حين تستشهد مع جوال سكر وجوال دقيق وعبوة زيت طعام تسلم الى أهلك مع الجثمان! إنها مسلتزمات عرس تأهيلك الى السماء! حتى عرس الشهيد مثل أعراس الأحياء، به درجات، إذا كنت من أصحاب الحظوة وذقنط طويلة، حين تموت، ستحضر عربات كثثيرة الى بيتك، تحمل الجثمان وتموينا يكفي عدة أهشر وستحضر فرقة موسيقية لاتمام مراسيم زفافك الى السماء. وسيكون هنالك رجل عظيم يكمل مراسيم عقد زواجك على إحدى بنات الحور. المرأة هنا تستنزفك فقط بطلبات لا تنتهي، وتشكو طوال الوقت، وهناك دائما أشياء تنقص البيت حتى لو سرقت وأحضرت السوق كله الى البيت يجب أن ينقص شئ ما، لم نسمع بعد كل أعراس الشهداء التي رأيناها بإحدى بنات الحور تطلب شيئا أو تشكو من نقص شئ ما!

نظر الجندي الى رفيقه فرآه يصدر غطيطا خفيفا رغم أن إحدى عينيه كانت مفتوحة، يا لك من جندي عظيم، هذه عادتك دائما حتى وانت في الانداية تتصرف وكأنك في الخندق، تنام بعين واحدة مغمضة وواحدة مفتوحة تتركها للمتمردين، لا يوجد متمردون على كل حال في الانداياات، يمكنك اغلاق الاخرى اليوم! كيف ينام الانسان مطمئنا وإبنه مريض بالملاريا اللعينة! لن أتركك أبدا في محنتك فحين جرحت لن أنسى أنك مزقت قميصك العسكري لتربط به جرح قدمي المصابة! كان قميصك قديما على كل حال وممزقا ومتسخا لأنك لم تغيره منذ عدة أشهر، لقد إلتهب جرحي قليلا وكدت افقد قدمي، حين كاد الطبيب يتخذ قرارا بقطعها! لابد أن الجرح نجم بسبب الاوساخ الكثيرة في قميصك! يقولون أن عرق الجنود سام! لأنهم يأكلون أي شئ تقع عليه أعينهم! يأكلون حتى الأفاعي السامة، يقولون الجوع كافر! لكن ليس لدرجة أن يأكل الانسان أفعى سامة أو عقرب صغير! لو قطع الطبيب قدمي هل كنت ستقف معي أيضا؟ وكيف كنت سأدبر عيشي؟ أنا الان بقدمين اثنين ولا استطيع تدبير حالي! فكيف سيكون الحال أن فقدت إحدى قدمي! وكيف سأتزوج بقدم واحدة! أعرف رجل تزوج في قريتنا وكان يملك يدا واحدة فقط، فقد يده أثناء عمله في موسم الحصاد، كان مشهورا في القرية بالفضول، يريد معرفة كل شئ في الدنيا، ان رأى ماكينة أو جهازا جديدا، يقوم بفتحه، ليعرف كيف يعمل، لا يصدق انه لا يوجد رجل أو امرأة تعيش في قلب جهاز الراديو! ذهب مرة واحدة وأخيرة للعمل في موسم الحصاد، يبدو أنه كان يخطط لزواج ويحتاج لجمع مبلغ اضافي من المال. الزواج اصبح مكلفا، الفقراء لا يستطيعون الزواج، حين ذهب للمزارع وبدأ العمل مع عمال الحصاد، أثارت الحاصدة الالية فضوله فذهب يحاول التعرف الى طريقة عملها وهي تعمل! فإختطفت الالة المتعجلة يده وحزمتها مع حزم الذرة!

تركته خطيبته! يا للنذالة! تغيرت الدنيا وتغيرت نفوس الناس، قبل زمان هذه الحكومة كان الناس يعيشون من اجل الاخرين، ولا يندهش احد حين يقدم لك شخص لا تعرفه معروفا. الان اذا قدم لك شخص ما معروفا، ستنظر فورا الى وجهه لترى ان كان يتصرف بصورة طبيعية أم أنه يجب أن يذهب الى مستشفى المجانين! يقال أن خطيبته لم يكن لديها مانع في الزواج منه حتى بعد أن فقد ذراعه لكن أسرتها رفضت ذلك! كانت هناك إمرأة توفي زوجها، يقولون أن زوجها مات في حادث على الحدود أثناء محاولته صيد الغزلان، عبر فوق لغم أرضي، لكنني أعتقد انه كان متمردا، فقد تغيرت أحواله في السنوات الأخيرة وكان يغيب كثيرا، وذات مرة حضر مجروحا، قامت اسرته بإخفائه حتى تعافى لكنه بقى يعرج حتى وفاته! لم أشأ أن اقوم بالابلاغ عنه، لا مصلحة لي في القبض عليه، كما انه يمت لي

بصلة قرابة بعيدة. لا أستطيع تسليم أقربائي الى فرقة الاعدام بدون محاكمة! لو بدات أسلم أقربائي المتمردين الى الحكومة لن يتبقى أحد في القرية، حتى أبى سيجد نفسه يواجه فريق الاعدام! إمرأة المتوفي رضيت بالزواج من صديقنا الذي فقد يده. كانت تعيش ظروفا سيئة بعد وفاة زوجها ولديها طفل. حين تكون ظروف الناس سيئة لا يقوم أحد بحساب عدد أقدامك أو أصابعك! يكفي أن الرأس موجود! الناس باتت تحتاج لمن يفكر لها في مخرج! كنت أعرف شابا لديه سبعة أصابع في كل يد وكل قدم ورغم ذلك لا يستطيع ولا حتى إطعام نفسه! باتت الحياة صعبة جدا! ربما لو خلق انسان جديد في زمان حكومتنا هذه سيكون له رأسان وعشرة أيادي! حتى يستطيع تدبير حاله! وستجده أيضا يحتاج الى ذقن ليدبر حاله! والا ستصبح أعضائه الاضافية عبء إضافي لن يستطيع إطعام كل هذه الاعضاء بنفس الوجبات القديمة!

الزينة فكرت في العودة للرجل الذي وعدها بالتفريق بين الزلال وسليمان دون أن يحقق أية نجاح. تحدثت مع احدى بائعات عجينة الفول السوداني وسألتها ان كانت تعرف رجلا يستطيع شفاء المرضى وكشف مكان الغائبين، وزعمت لها أنها تبحث عن والدها الغائب منذ سنوات. أشارت لها المرأة الى رجل آخر إشتهر بمقدراته الاسطورية على إبطال السحر وقراءة المستقبل. كان رجلا ذكيا إستمع لها بإهتمام ماكر وهي تحكي قصة فتاة وهمية تسببت في إختفاء والدهم عنهم، وأنها تريد أن تعطيها درسا حتى لا تتسبب في خراب بيوت أخرى، إبتسم الرجل ورسم أمام الفتاة خطوطا على الأرض، رأى الرجل الغائب سادرا في هروبه ليس بسبب الحب بل الفوضى والإرهاق، كان ميالا منذ صغره للعيش خارج مدار أية مسئوليات بشرية، يفتقد الى روح الرغبة في العيش ضمن القطيع. حتى أثناء اللعب في طفولته كان يفضّل أن يلعب وحيدا، لم يكن يشارك في لعبة كرة القدم التي يلعبها الصبية بكرة مصنوعة من الخرق، في أزقة المدينة الصغيرة النائمة في حضن الصحراء، كان يكتفي بالجلوس ومراقبة اللعب من على البعد.

رأى الفتاة الجالسة أمامه ينوء قلبها تحت ثقل عاطفة أقوى من أية رغبة في الإنتقام، عاطفة إعصارية يمكنها إكتساح العالم كله أمامها. قال لها ببساطة أن الرجل الذي تفكر فيه مشغول في تلك اللحظة لا بالحب كما تعتقد هي بل بمداواة جروح غائرة في قلبه، لم يكن الحب سببا لها بل الموت. أوضح أن جدارا خفيا كان يحول بينه وبين العالم بدأ يتساقط أمام

حمى رغبة مستحدثة لإكتشاف العالم، لكنه يظل محكوما داخل جدار الموت. الذي يرخي له فقط الحبل، بدلا من أن يحبسه داخل غرفة ينقله الى فناء واسع جدرانه البعيدة غير مرئية، شرح لها ان هذا الرجل لا يعطي شيئا، بل هو محتاج للحب، كل حصة يحصل عليها تعطيه رصيدا تبعد عنه جدران خلايا الموت النائم في ذاكرته. أوضحت الزينة أنها ترغب في إزاحة كل عائق يقف أمام قلبه، إبتسم الرجل وقال: لا يمكنني إزاحة الموت!

الزينة إضطرت أن تصف له الزلال التي تقف في طريقها، لكن الرجل لم ير شيئا، أوضح لها مرة أخرى أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا طالما ان الرجل ليس مهيئا لمبادلة الحب، وان حواجز الموت التي تحدق به يمكن ان تكتسح حتى من يحاول الإقتراب منه متخطيا الحواجز غير المرئية من حوله!

كان الرجل أمينا جدا، لم يحاول أبدا إستغلال رياح عاطفتها الهوجاء، قال لها أنها يمكن أن تتزوج به، لكنه لن يعطي سوى في حدود ضيقة، أن نفاذ رصيده سيقرّب جدار الموت من رقبته، سيحتاج دائما الى الحب، حتى يتسنى له ان يقاوم. قال لها أنه يرى انها تبتعد قليلا منه ومن المكان الذي يقيم فيه حتى تتمكن من التقرّب منه. نصحها ان تبدأ في إعداد بيتها. وأن الرجل الذي تريد سيأتي بنفسه ليقع في شباكها، لأنه سيكون محتاجا لها أكثر من حوجتها للعيش معه.

الزينة عادت دون ان تفهم شيئا عما يجب ان تفعله في الفترة القادمة. كانت تفكر في الكلام الذي سمعته من الرجل، كان حديثه مقنعا وبدا عارفا بكل شئ يقوله، لم يحاول حتى إستغلالها فلم يطلب مالا، شعرت بأنه حين يرفض أن يقدم لها أية شئ ، كان يرغب بالفعل في مساعدتها. كانه فقط يضئ الأشياء المظلمة من حولها لتراها، لا لتحاول إزالتها من طريقها بل لتتحرك بحذر بينها حتى لا تصطدم بها. تذكرت قوله ان الموت سيكتسح كل من يحاول تخطي حواجز معينة حول سليمان العسكري! يا للكارثة حتى لو نجحت في الزواج منه كيف يمكنها تمييز الحواجز التي يجب عليها ألا تتخطاها حتى لا تقع في فخاخ الموت! شعرت انها يمكن ان ترسم لنفسها حدودا إن لم تتمكن من تفكيك تلك الحواجز اللامرئية.

رغم أن الرجل لم ير في الزلال أية خطر عليها، بل أنه لم يستطيع حتى تحديد صورة الزلال أو إن كانت موجودة في العالم، رغم أنها وصفت له رائحتها المميزة التي تتركها في كل مكان تظهر فيه، فكر الرجل قليلا ونظر من خلالها الى البيت، وقال، لا أستطيع هنا الا أن اشم رائحة الموت!

لكن الزينة قررت أن تمضي في خطتها رغم انها فكرت أيضا أن تترك الانداية حسب وصية الرجل. كانت مترددة، خشيت أن تترك البيت ويخلو الجو مع فتاة اخرى لسليمان حتى وإن مرضت الزلال او غادرت البيت. يوم الأربعاء التالي نجحت في وضع جرعة ثانية للزلال.

مر اليوم عاديا، كان هناك رواد كثيرون في الانداية فلم ينتبه أحد للزلال التي كانت تشكو من ألم في معدتها. وجدها سليمان تفرغ جوفها في فناء البيت الخلفي الذي تصنع فيه المريسة. كانت تشكو من الحمى، فقررت النسيم أن الفتاة مصابة بالملاريا. أحضر سليمان العسكري المساعد الطبي، الذي أعطاها حقنة كلوروكوين. في اليوم التالي لم تتحسن الزلال كثيرا. لكن حالتها بدت مستقرة. وتوقف القئ، بقيت طوال اليوم الثاني في فراشها. حين حضر المساعد الطبي ليعطيها الجرعة الثالثة من عقار كلوروكوين قال لسليمان أن هناك أنواع من الملاريا لا تستجيب للكلوروكوين وأنه ربما من الافضل نقلها للمسشتفي ان لم تتحسن حالتها خلال يومين. لكن النسيم كانت لديها فكرة أخرى. قالت لا يوجد علاج في المستشفى، أرسلت سليمان العسكري ليحضر ست النفر. ثم تذكرت أن اليوم يوم السوق، فطلبت منه الإنتظار لأن ست النفر تعود الى بيتها عصرا في يوم السوق.

الزينة كانت تشعر بالخوف الشديد، بذلت جهدا كبيرا حتى لا يلاحظ أحد خوفها وتوترها. ولدهشتها لم تشعر بالفرح أن غريمتها مريضة وربما تخلي لها الطريق الى قلب سليمان العسكري، كانت تشعر بالندم، بدا لها سليمان نفسه، مجرد رجل عادي لا يستحق كل ما جازفت به من أجله. أنه مجرد عابر سبيل في العالم يكافح فقط ليراه الناس فلا يضطر ليواجه وحيدا، الموت الذي يتبعه مثل ظله، دعت من قلبها للزلال أن تنجو من مرضها، كانت تشعر بشئ من الاطمئنان ان الجرعة التي وضعتها لها قليلة جدا ولا تكفي لقتلها، لكنها تعرف أن بعض الناس قد لا تقاوم أجسادهم المرض، كانت في المطبخ تساعد أسمرينا حين جاء سليمان وقال أنه سيذهب عصرا لإحضار ست النفر لتعالج الزلال. شعرت الزينة بالخوف، حتى أنها أسقطت من يدها كوبا زجاجيا كانت تغسله، فتحطم فوق القدور التي تغسلها في طسط أمامها على الأرض، في تلك اللحظة عرفت الزينة ان وقت الرحيل قد أزف، لم يكن هينا بالنسبة لها أن تجازف بمغادرة البيت الذي عاشت فيه لسنوات كانت فيها جزءا من كل شئ فيه، وإستطاعت من الأجر الذي حصلت عليه لقاء عملها أن تحل كثيرا من مشاكل أسرتها. الآن صار بوسع إثنان من أخوتها العمل ومساعدة الأسرة. تريد ان تستقر أولا في بيت حلمت به كثيرا قبل ان تذهب لزيارتهم.

كانت ترى نظرات إتهام في عيون كل من حولها. رغم أن أحدا لم يفكر في أن الزلال تعرضت للسم. الاصابة بالحمى والقئ عادي جدا ويحدث كثيرا. وأحيانا لا تفيد حتى الأدوية في المستشفى. يقول الطبيب أن بعض المرضى لا يستجيبون للدواء، لأن الملاريا تقاوم الأدوية القديمة. هنالك أدوية أخرى لكنها خطرة، يسبب عقار الكينين الفشل الكلوي لبعض المرضى، لذلك لا يستخدمونه الا للضرورة. هناك دواء جديد كما يقول الطبيب لكنه غال جدا ولم يصلنا هنا بعد، لذلك كان يطلب من بعض المرضى الذين يتعذر شفائهم بعقار كلوروكوين أن يسافروا الى الخرطوم. سقتها النسيم مغلي أوراق الطلح، ومغلي العرديب. تحسنت الفتاة قليلا، لكنها كانت لا تزال تشعر بالاعياء وبالتعب.

الزينة، بدأت تعد نفسها للرحيل. كانت قد إدخرت مبلغا من المال في الشهور الأخيرة بعد ان بدأا شقيقاها يعملان، صدف ان حضر قبل أيام الى الإندداية رجل يعمل في مجال البناء. كان رجلا شابا طويل القامة، يعطي مظهره إنطباعا بأنه إنسان جدير بالثقة. سألته الزينة إن كان جنديا او ضابطا بالجيش، فضحك وأوضح أنه يعمل في مجال البناء. تحادثت معه الزينة حول العمل، وسألته كم يكلف بناء بيت صغير ، قال لها ان التكلفة ستتوقف على نوع المواد التي تنوي أن تبني بها البيت، ولآن المنطقة بها أمطار كثيفة في فترة الخريف فيجب أن تبنى البيوت بطريقة معينة ويتم استخدام مواد غالية، لكن معظم أهل المنطقة بسبب الفقر يفضلون بناء بيوت من الخشب والاعشاب، لحين تحسن احوالهم لأن بناء بيت من الاسمنت سيكلف كثيرا. خاصة الاساس الذي يجب استخدام الحديد والاسمنت في بنائه. أوضحت له الزينة انها تريد بناء بيت بسيط وصغير من الاخشاب والأعشاب، قدّم لها الرجل تكلفة تقديرية موضحا انها قد تنقص او تزيد قليلا، سألته عن أسعار قطع الأرض. وكيف يمكنها شراء قطعة أرض للمسكن لأنها لا تعرف شيئا عن الاجراءات الواجب اتباعها للحصول على قطعة أرض من الحكومة. أوضح لها الرجل أن الحي الذي تفصله الغابة عن الإنداية تقطن فيه بعض الأسر التي نزحت بسبب الحرب. لا يحتاج البناء لأية تصريح ولن تحتاج لشراء الأرض ، لكن الحكومة يمكن ان تقوم مستقبلا بهدم البيوت المبنية في المنطقة وطرد

سكانها إن كانت هناك حاجة للأرض، أما في الوقت الحالي كما قال لها عامل البناء فلا يوجد حكومة أصلا، الحكومة مشغولة بجمع الضرائب والحرب.

سألته إن كان بإمكانه بناء البيت لها فوصف لها بيته وطلب منها أن ترسل له بمجرد أن تقرر البدء في بناء البيت، وانه سيقوم بنفسه بشراء المواد اللازمة وأحضارها الى الموقع.

الزينة كانت واثقة أن النسيم لن تقبل لها بمغادرة البيت. لكنها وجدت فكرة جيدة لإقناعها، يمكنها أن تواصل في أداء بعض العمال مؤقتا للنسيم من بيتها. ويمكنها الحضور للإنداية أحيانا أن كانت هناك حاجة لها، وستبدي إستعدادها للعمل مؤقتا ان غابت احدى الفتيات لحين عودتها أو حضور بديل لها.

وجدت أنها بسبب كثرة العمل لن تستطيع مغادرة البيت، طلبت من سليمان العسكري أن يذهب بعد ذهابه الى ست النفر ليطلب من الرجل الذي سيبني البيت ان يحضر مساء لمقابلتها. لم تخبر سليمان بكل التفاصيل لكنها طلبت منه الا يخبر أحدا بحكاية البيت. حين حضر الرجل أعطته الزينة مبلغا من المال وطلبت منه أن يبدأ فورا لأنها ترغب في الرحيل الى بيتها خلال شهر واحد. وعدها الرجل أن يبدأ صباح اليوم التالي في إحضار المواد وجمع عماله.

جاءت ست النفر مساء. كانت الزلال في نفس حالتها المستقرة. ألقت ست النفر ودعاتها، فرأت الموت متخفيا في ثياب الحب، وأن الفتاة الجميلة بعينيها الحزينتين كانت ضحية للحب والموت الذين يسيران مثل اللعنة في ركاب رجل شاهد وهو لا يزال فتى صغيرا، منظر إعدام والده. وضعت يدها فوق جبهة الفتاة وقرأت تعاويذها، حين فرغت أعلنت للنسيم في أذنها أن الفتاة مسمومة. لم تستوعب النسيم في البداية كلام ست النفر وسألتها ان كان ذلك ناتجا من حمى الملاريا. سألت ست النفر الفتاة إن كانت أكلت شيئا لوحدها. هزت الفتاة رأسها نافية أن تكون أكلت أية شئ لوحدها. أخرجت ست النفر من جرابها بعض الأعشاب وذهبت لوحدها الى المطبخ وقامت بغلي الأعشاب وأحضرت المغلي للفتاة. شربت الزلال قليلا من المغلي ثم غرقت في نوبة قئ، ساعدتها ست النفر لتذهب للمرحاض، شرحت للنسيم أن الدواء يسبب إسهالا، لكنه يخلص الجسم من جزء كبير من السموم التي دخلت فيه. قضت الفتاة الليل كله وهي تفرغ جوغها بعد كل جرعة من دواء ست النفر وتذهب الى المرحاض، وكان صدرها يعلو ويهبط ودقات قلبها تتسارع وبدا كأنها ستلفظ أنفاسها الأخيرة في أية لحظة، بقي سليمان العسكري ساهرا مع ست النفر بجانبها طوال الليل، حين

إرتفع صوت آذان الفجر، قالت ست النفر أن ذلك يكفي، وأن الفتاة لن تتحمل أكثر من ذلك. غادرت الى بيتها تاركة سليمان نائما على الارض بجوار الفتاة.

كان سليمان نائما حين إيقظته الزلال في الصباح، كان تبدو رغم الشحوب البادي في وجهها، قد استعادت بعض نضارتها، أحضر لها سليمان كوبا من الماء، شربته كله ووضعت الكوب جانبا، ثم حاولت أن تقف مرة أخرى لكنها شعرت بدوار، فعادت لتجلس في فراشها.

قالت بخوف: أشعر أنني سأموت! أريد أن أذهب الى أمي. وقف سليمان أمامها مرتبكا من كلامها، ثم جلس بجانبها على الفراش محاولا أن يبدو متماسكا رغم أن ذكر الموت قد جعله يفقد سيطرته على الجدار الفاصل في ذاكرته، يشعر كأنه يسقط من دواخله الى الخارج. حاول أن يجمع جسده داخل نقطة إرتكاز جسده، حتى لا يسقط في الهاوية السحيقة للعالم خارج جسده .

أخبرته أن أحد أقربائها يحضر الى اسبوعيا الى سوق المدينة وطلبت منه أن يقوم بإبلاغ رسالة الى والدتها حتى ترسل من يقوم بمرافقتها. ذهب سليمان الى السوق يوم السبت وبحث عن الرجل حتى عثر عليه، أبلغه برسالة الزلال. واصلت ست النفر علاجها. لكن الفتاة الجميلة صارت خلال أيام قليلة مثل هيكل عظمي. جاءت والدة الزلال وشقيقتها بعد أيام، تطوع احد جيرانهم وأحضرهم بعربته وانتظر في الخارج حتى جمعت الأم أشياء الزلال ثم ساعداها لتخرج من البيت، كان سليمان منزويا في الداخل لم يجرؤ على وداع الزلال، يشعر أن تلك اللحظة ستضعه مباشرة أمام المخاوف التي ظل يهرب منها طوال عمره. بينما النسيم في كرسيها كانت تبكي، أعطت النسيم والدة الزلال كل المال الذي كانت الزلال تدخره عندها. قبل أن تبلغ الزلال من خلال دموعها أنها ستنتظر عودتها مجرد أن تشعر أنها بخير.

في المساء كان الحزن يخيم على البيت بعد رحيل الزلال، سليمان كان يشعر بالذنب، دون أن يفهم لشعوره سببا، كان يشعر بأنه وحيد في مواجهة مخاوفه المنسية، يشعر بالخوف حتى وهو جالس وسط الناس في مساء الانداية، لا يفهم كيف يمكنه مواجهة العالم، كيف يمكنه أن يذهب حتى الى الحرب، ثم يخاف من مواجهة نفسه، لا يستطيع أن يفهم أن الحب كان يوفر له حماية مستحيلة في مواجهة المخاوف المدفونة في لاوعيه.

في حمى إنشغال الفتيات بخدمة الزبائن، نادت النسيم على الزينة، الزينة كانت تحاول ان تبدو عادية أثناء عملها، رغم شعورها بالخوف، حين ودعت الزلال إحتضنتها وبكت بصوت عال، رغم الضوء الخافت لكن الزينة لاحظت تجهم النسيم، كانت النسيم تمسك في يدها بعلبة بلاستيكية صغيرة كانت الزينة تحتفظ فيها بالعشب السام، فتحت النسيم العلبة وسألت الزينة: ما هذا العشب؟

إرتبكت لازينة لكنها حاولت أن تبدو تماسكة، قالت إنه دواء، قالت أنها تستخدمه لأنه يخفف آلام مغص الدورة الشهرية. نظرت اليها النسيم بشك، وقالت هل يمكنك أن تتناوليه الآن. كان إرتباك الزينة واضحا، حاولت أن تدعي عدم الفهم، دون أن تلاحظ انها بسبب الارتباك لم تسأل ولم تحتج على أخذ العلبة من حقيبتها دون علمها. قالت: لماذا إستعمله الان؟ لا أحتاج اليه الان!

قالت النسيم: لن تستعمليه لأنك لن تحتاجين له أم لأنك تخافين من إستعماله؟

قالت الزينة: لماذا أخاف من إستعمال دواء؟

قالت النسيم بهدوء قاتل: لأنه سم وليس دواء!

شعرت الزينة بدوار في رأسها لكنها تماسكت، صمتت برهة ثم قالت: من قال ذلك؟ إنه دواء!

قالت النسيم: لا داعي لنضيع الوقت. لقد قابلت ست النفر الرجل الذي باعه لك وعرفت أنه سم للفئران!

صمتت الزينة، ثم بدأت الدموع تغطي وجهها. وبختها النسيم بهدوء ، قالت أنها لم تكن تتوقع أن تقدم أكثر بناتها عقلا على هذا العمل الطائش. كان واضحا أن النسيم تحرص على ألا يسمع شخص ما يدور بينهما، كانت تتحدث بصوت أقرب للهمس، قالت من حسن حظك أن الفتاة المسكينة لم تمت لكن لا أحد يعلم إن كانت ستشفى تماما أم ستعاني من مشاكل أخرى بسبب السم. قالت ست النفر أن الفتاة كانت تتبول دما قبل سفرها! ستكونين محظوظة إن نجت الفتاة والا فسأكون مضطرة لابلاغ الشرطة!

إنهارت الزينة أرضا وهي تبكي دون أن تحاول الدفاع عن نفسها. قالت النسيم أنها لا تريد فضائح، قالت نحن نعمل في مكان حساس، ان عرف شخص ما بحدوث شئ مثل هذا

ستحضر الحكومة وسيغلق هذا البيت وسنجرجر الى السجون. قالت النسيم، لقد عرفت على كل حال انك تنوين الرحيل من البيت، لا مشكلة يمكنني أن أعطيك بعض الوقت هنا حتى تفرغي من إعداد بيتك..

قالت الزينة من خلال دموعها: افضل ان اغادر فورا!

قالت النسيم: لن يكون ذلك عملا عاقلا وسيربط الناس بين رحيلك وبين ما حدث للفتاة. إنك فتاة عاقلة. ومثلما نحن حريصون على إبعاد المشاكل عنا لابد أنك حريصة على سمعتك. يجب أن تفكري في الأمر بهدوء. ولا تظهري أية شئ للآخرين، واصلي عملك بصورة عادية. وحين يصبح بيتك جاهزا سيساعدك الجميع على الانتقال اليه، وما حدث هنا سيظل سرا بيننا، تعاهدت مع ست النفر على كتم كل ما عرفته وأنا أثق فيها.

بقيت الاثنتان صامتتين لبرهة، ثم قالت النسيم، سأنادي على سليمان بعد قليل ليساعدني على الدخول الى البيت، إذهبي الان وأغسلي وجهك وواصلي عملك.

نظرت الزينة في وجه النسيم، فعرفت أنه لم يبق شئ لتقوله، فإنسحبت الى البيت بسرعة وهي تمسح الدموع بمنديلها.

جلست الزينة فوق حفرة الدخان وكان زوجها مستلقيا على عنقريب لاهيا ينظر في النجوم.كان يبدو وكأنه مشدوه بروعة الكون في ليلة رائعة غارقة في النجوم. لكنه كان يعيش في تلك الحظة على تخوم سعادة شخصية بسبب عدة أكواب من الشراب الجيد تجرعها قبل عودته الى البيت في مروره اليومي على إنداية النسيم. قبل سنوات إنتشلته الزينة من أنداية النسيم.كان يقضي أيامه كلها هناك، وحين نفدت الأموال القليلة التي عاد بها كما سمعت من بعض النسوة من عدة سنوات من الغربة في ليبيا أصبح يساعد النسيم في ادارة البيت، ترسله الى السوق لشراء مستلزمات صناعة المريسة.كان وسيما وسامة لافتة. لكنه كان حذرا في تعامله مع النساء حتى راجت شائعة شذوذه. بعد شهور من مغادرتها للإنداية خرجت الزينة ذات مساء لتجمع بعض الحطب. كانت تريد السفر صباحا الى المدينة واكتشفت انه لا يوجد لديها وقود للطبخ. فجأة اشتمت رائحة خمر قوية، تختلط بقوة مع رائحة تعرفها: رائحة ضبع! وقبل ان تستطيع تحديد مكانها اصطدمت قدمها بجسم رجل يرقد على الارض. تراجعت الزينة خائفة. ثم نادت على الرجل فلم يرد، اقتربت قليلا فرأت وجهه الوسيم في ضوء القمر ، سليمان العسكري، لازمه لقب العسكري منذ ان وفد الى المنطقة ببقايا أسمال ملابس عسكرية. لفظته حروب لا تنتهي من القرن الافريقي وحتى أواسط القارة. جاء بهدف وحيد معلن: البحث عن والدته التي تسربت صورتها من ذاكرته منذ اصطحبه والده ذات صباح وهو صبي صغير على ظهر عربة لوري قطعت الحدود الاثيوبية وكادا يهلكا في تلك الرحلة اثر هجوم لعصابات الشفتة، وإحتجاز قوات الجنرال منجستو هيلا مريام لهما عدة أشهر في معسكر ناء على سفوح الهضبة الاثيوبية تحفه غابات إستوائية، تم تدريبهما فيه على استخدام السلاح وقبل ان يبلغ الحلم وجد نفسه يحمل بندقية، دفع بهما الى ساحة الحرب. كان حلم والده ان يحارب الى جانب قوات التحرير

الاريترية فوجد نفسه يحاربها. هرب والده بعد ايام قليلة من ارسالهما الى جبهة الحرب، ولم يره مرة اخرى أبدا ، حتى الصباح الذي دفعه الفضول ليذهب لرؤية مشهد اعدام عدد من الجنود الذين فروا من ميدان القتال، كان يدفعه قلق وخوف غريب وهو يحث الخطى بإتجاه المنطقة التي سمع ان الجنود سيتم اعدامهم فيها. رأى عددا من الجنود مربوطين في أعمدة خشبية. مر ببصره من فوقهم بسرعة قبل أن يتوقف امام الوجه الذي لا يستطيع أن ينساه أو يتذكره. لأن القدر كان رحيما به فحجب الواقعة في منطقة وسطى في ذاكرته، خارج إدراك جنة نسيانه وجحيم وقائع الذاكرة. الواقعة التي ستقف مثل خازوق في قلب ذاكرته، لا يستطيع تجاهلها، كونها مركز إشعاع لكل أحزانه، ولا يستطيع حتى رؤية تفاصيلها او إختراق قوقعتها. بالنسبة لسليمان لم يكن يعرف الفرق بين ان يحارب الى جانب الجيش الاثيوبي او مع قوات الثورة الاريترية. بسبب صغر سنه لم يدفع به في الفترة الاولى الى الخطوط الامامية. كان يساعد في الخطوط الخلفية، يستدعى احيانا للمساعدة في عمل المطبخ او في المستشفى الميداني الصغير.

حين سمعت صوت دق على باب الزنك. كانت صديقتها السرة، جلست السرة بجانب الزينة على مقعد صغير، كان سليمان يسمعهما تضحكان دون توقف، كان النسيم البارد يهب خفيفا في الفناء فيسمع صوت اوراق الشجر ويسمع صوت ضحك زوجته وصديقتها واضحا ثم يختفي صوتهما حين تهب الريح في الاتجاه الآخر، لاحظ ان صوت زوجته وصديقتها كان متشابها جدا كأنهما كانتا توائم. السرة كانت تتمتع بجمال غريب، كانت متزوجة وتقيم في قرية بحذاء مزارع السمسم الحدودية، مات زوجها في تبادل لإطلاق النار عبر الحدود، وقال البعض ان رجال الجيش هم الذين قتلوه بعد ان إكتشفوا انه كان ينقل بعض المعلومات عنهم الى إحدى الحركات المتمردة، إنتقلت بعد موت زوجها لتعيش في المدينة، كانت تصنع الخمور البلدية في البداية وحين كثرت زيارات رجال الشرطة، الذين كانوا يحضرون نهارا لمصادرة الخمور وليلا لشرائها توقفت عن عمل الخمور، وتحولت لصناعة المناديل والطواقي وحلوى السمسم، وبيعها في سوق المدينة، زعم كثيرون أنها كانت تبيع الهوى أيضا خصوصا في موسم الجفاف، حين يتوقف الناس عن شراء الحلوى والمناديل، لا يتبق في جيوب معظم الناس سوى القليل من المال، فتتراجع إهتمامت الشراء الى الضروريات القصوى، مثل الغذاء وأحيانا الحب والخمر. كانت السرة تتبع دورة المواسم، في عرضها لمختلف بضائعها، في رحلة صراعها من اجل كسب العيش. بعد قليل ودعتهم السرة خارجة، طلبت الزينة من سليمان أن يرافق السرة قليلا لأنها كانت تخاف من الكلاب الضالة، كان سليمان لا يزال يشعر بالانتعاش وأن بدا تأثير المريسة يتلاشى في رأسه.

عبرا بجانب أجمة أشجار التمر الهندي، كانت هناك أرانب تقفز امامهما وتختفي داخل أجمة الاشجار. ثم عبرا داخل غابة السنط، تسير السرة بجانبه فجاة تعثر سليمان بجذع شجرة وسقط أرضا، جلست السرة بجانبه، وشعر بأنفاسها قريبة من وجهه وهي تساعده ليقف، دون أن يشعر وجد يده تمتد الى صدرها، إنتبه بسرعة وسحب يده، لكن السرة لم تتراجع، مدت يدها المدرّبة وسحبته الى داخلها. سليمان رغم مرور سنوات على إستقرار علاقته بالنساء، لكنه كان يلهث من الخوف، كأنه يمارس الحب لأول مرة في حياته، غرق في نعيم الجسد حتى جرفه التيار، يقاوم ليرفع جسده قليلا حتى لا يموت مختنقا تحت ركام سقف الحب الذي سقط فوق رأسه، يشعر أنه يسحب مع هواء الليل المشبع بنوار شجر السنط، غبار النجوم التي رعت مولد قلبه من رماد الموت، وأوراق الشجر الجافة، وصمت الموتى في التلال المحيطة.

عاد الى البيت مرهقا قليلا من وعثاء الحب. كانت الزينة قد اكملت إستعدادها للحب، نادته، لكنه فاجأها بقوله:

لا أستطيع أن أقوم بعمل ذلك مرة أخرى!

دهشت الزينة وحسبته يمزح، ثم تذكرت أنه بالفعل تأخر قليلا حين خرج مع السرة.

صاحت به : ماذا تقصد بمرة أخرى؟

قال وهو يبحث في الفناء عن بقية شراب المريسة: أنت تعرفين صاحبتك جيدا، لماذا تطلبين مني أن أذهب معها؟

أمسكت به السرة وصرخت في وجهه، لكنه كان يبدو متبلد الإحساس كأنه شخص جديد سقط فجأة الى العالم دون معرفة بأية شئ. لا يفهم حتى سبب غضبها! كأن ممارسة الحب هي شئ ضروري لإعادة تنظيف ذاكرته، تعيد شحن بطاريات مقاومته للموت، وتدفع به مرة أخرى ليمارس الحياة بضراوة، من يعرف انه يلعب في وقت إضافي لا مزيد من الوقت بعده! فجأة فيما كانت الزينة تصرخ وتتوعد صديقتها بالعقاب وبقطع أية علاقة معها، جلس سليمان أرضا وبدا يفرغ جوفه، صرخت الزينة لمشهد بقايا الكرات الضوئية التي أخرجها من جوفه، كانت تلك بقايا غبار النجوم الذي إبتلعه مع الهواء اثناء غرقه في طوفان الحب!

بعد أن استلقى قليلا بجانب الزينة شعر بنفسه يستعيد قوته وان المريسة الجيدة التي شربها في الاندابة تبخرت من رأسه، هب واقفا ووضع طاقيته الحمراء فوق رأسه وبحث عن حذائه في ضوء القمر، جاءت الزينة من الداخل وحين وجدته متأهبا للخروج، حاولت منعه، لكنه كان يشعر بفراغ في قلبه ووجهه، يشعر بعطش شديد لحياة لا يجد لها وصفا أو حدودا، حياة يكافح طوال عمره من أجل أن ينتزع وجهها الهلامي الغارق في شبح الموت الذي يلازمه مثل ظله. شرح للزينة أن جوفه يحترق ولن يطفئ ناره سوى الشراب. شرح لها أنه لن يستطيع النوم، وإذا لم يطفئ نار عطشه في تلك الليلة فسيظل في عطشه مدى الحياة، وإن شرب نهرا في جوفه! شعرت الزينة بخطر الموت المحدق، موت يسحب رجلها من جوفه، يضع له طعما ناريا في جوفه، ليأتي بقدميه الى الفخ الذي لا نجاة منه. فتشبثت به تحاول منعه من الخروج لكنه دفعها بعيدا منه وخرج وهو يتمتم إنه لن يتأخر كثيرا..

كان الفجر قد إقترب، لكن الظلام لا يزال دامسا، كان الرقيب عبد الحي يجلس على الأرض قليلا، ثم يقف حتى لا يستسلم للنوم، يمشي قليلا ثم يتكئ على جذع شجرة، شعر بعطش شديد، وبرغبة قوية في أن يشرب شرابا ينسيه حتى إسمه، سمع حركة ما في أجمة الأشجار من حوله، ربما كان ثعبانا، يحاول صيد أحد الطيور النائمة في أعشاشها. إنه يفعل الشئ نفسه، يختبئ في الليل ويكمن لفريسة مجهولة ساقها قدرها لتواجه الموت دون ذنب. يحاول ان يرفع صوت أفكاره الأخرى لينسى إستهدافه لبرئ، يرفع أصوات فكرته في الإنتقام، يحاول تعويض قتله لشخص برئ بإشعال حرب تحيل المنطقة الى جحيم. لن يقبل حتى بالتفاوض مع حكومة تقتل الناس جميعا. بسبب الفقر والسل وضعف الخدمات أصبحت القرى شبه فارغة. نصف الناس في القبور والنصف الآخر هاجروا الى أي مكان. بدأ يحصر في ذاكرته أسماء الجنود الذين يمكن ان يشاركوه في التمرد. بعضهم سبق لهم التحدث معه حول رغبتهم القيام بعمل ما. وضع في ذاكرته خمسة أسماء. يمكنه ان يبدأ من الصباح في الاتصال بهم، سيبدأ العمل بتهريب اسلحة من المعسكر، سيبداون بالأسلحة الخفيفة، وإذا أمكنهم سرقة بعض الأسلحة الثقيلة سيعطيهم ذلك فرصة البدء بعمليات كبيرة، يكون لها صدى كبير يشجع الكثيرون على الإنضمام للحركة. يمكنهم الاستيلاء على عربة مدرعة، تلك ستكون آخر غنيمة قبل الخروج النهائي. فكّر أن تكون أول ضربة لهم توجه للمعسكر نفسه، إن ضربة مباغتة غير متوقعة ستكون قاصمة، لن أحدا لن يتوقع أن مجموعة من المتمردين سيهاجمون الحامية التي كانوا يتبعون لها تحديدا. ويمكنهم أن يغنموا معدات مهمة كثيرة وسيمضي وقت طويل قبل أن يستطيع الجيش إعادة تأهيل المعسكر وتجميع القوة من جديد. خطرت له فكرة أن تقوم حركته بخطف عدد من الضباط وإطلاق سراحهم مقابل فدية، يمكن أن يصبح ذلك مصدرا جيدا للدخل للحركة الوليدة، لكنه

تذكر ان الحكومة لا تولي اهتماما كبيرا بشان التفاوض حول الأسرى، حتى أنها تعلن في العادة وفاتهم حتى تغلق ملفاتهم نهائيا. سيكون من الأفضل الإستيلاء على الأسلحة والذخائر وبيع أجزاء منها. والاستيلاء على أية أموال حكومية تقع تحت أيديهم. هنالك بنوك حكومية في وسط المدينة. يسهر المزارعون الليالي الطويلة ويعانون كثيرا في موسم الزراعة، مع الأكل الردئ والحشرات السامة والملاريا وصعوبة التنقل، وحين يحصدون المحصول تكون عربات البنوك جاهزة للاستيلاء عليه! ذهب مرة واحدة الى البنك، كان يريد الحصول على قرض صغير لتمويل زراعة قطعة أرض صغيرة، كانت الأرض ورثة من جده يشترك فيها معه عدد من أقربائه. أخبره موظف البنك أنه بحاجة لتسجيل الأرض في إسمه في البداية حتى يتمكن من رهنها للبنك للحصول على القرض. كان الرقيب عبد الحي يعتقد ان الأمر بسيط جدا، وأنك اذا كنت ترغب في الزراعة فإن البنك هو الجهة التي تساعدك. ترك فكرة الزراعة نهائيا وفيما بعد حين قام الورثة ببيع نصيبهم في الأرض لأحد الورّاث كان هو الوحيد الذي إستطاع ان يدخر خلال سنوات مبلغا من المال أثناء عمله خارج الوطن، قام الرقيب عبد الحي ببيع نصيبه أيضا.

إنتبه على صوت احدهم يحاول فتح الباب. قررأن يتأكد من الطريق الذي سيسلكه الشخص ثم يتراجع ليقتنصه من مكان بعيد قليلا من مدخل البيت. لكن محاولة فتح الباب توقفت، ربما غيّر الشخص رأيه وقرر البقاء. عاد الرقيب ليجلس مرة أخرى على الأرض، كان يشعر بتوتر شديد، ولم يرفع بصره من باب الإنداية. سمع صوت غناء مخمور في الداخل، وما بدا له صوت نواح خفيف. عاد مرة أخرى يحاول شغل نفسه بالتخطيط لمستقبل حركته. سيقوم بترقية نفسه الى جنرال، وبذلك ستصدق نبوءة بائعة الخمور في وسط المدينة التي كان يشتري منها أحيانا حين يكون في السوق لقضاء شئ ما، وحتى لا يضطر للسير مسافة اضافية للوصول لاندابة النسيم التي لا تقع على طريق معسكر الجيش. كانت المرأة تغدق عليه ترقياتها الاستثنائية، وتناديه قائلة: يا سعادة الجنرال. رغم أن الترقية لم يكن يقابلها أية معاملة خاصة. حتى ان الجنرال كان يقف في الصف احيانا خلف عدد من السكارى المرحين، والمشردين الطيبين، ضحايا الحروب وكوارث البشر الاخرى. تستخدمه بائعة العرقي كمثال للإنضباط حين توبخ أحد السكارى الذي يحاول تخطي الصف ليحصل على نصيبه من الرشاب قبل الاخرين. تقول له: عد الى مكانك في آخر الصف، ألا ترى الجنرال كيف يقف في آخر الصف في إنتظار دوره، رغم إنشغاله بحماية الوطن! لا يفهم إن كانت جادة ام انها تسخر منه ومن الجيش حين تتحدث عن إنشغاله بحماية الوطن! يقول في سره لو عرفت كيف ان الجميع يسرقون الوطن، حتى من يجب عليهم حمايته! لا يعرف إن كانت

تشكره او تشتمه، لكنه يبقى ممتنا لها على الترقية الاستثنائية وعلى الدعاية المجانية حين تستشهد بإنضباطه في صفوف الخمر، رغم ان الانضباط يصبح جزءا من سلوكه العام بسبب التربية العسكرية الصارمة، والتي يتشكك أحيانا في صرامتها حين يشاهد ممارسات كبار الضباط.

توبخ شخصا آخر وتقول: مثل اطفال المدارس يجب أن نعلمكم إحترام الاخرين، أنظروا الى الجنرال، يقف في الصف ولا يحاول تخطي الآخرين رغم أنه مشغول بمطاردة المتمردين الذين يحاولون الاستيلاء على الحكم، تنظر حواليها ثم تقول: قد ينجحون في ذلك يوما ما، لكن لن يجدون أحدا في الوطن ليحكموه! السل والملاريا والجوع يحاربون مع الحكومة! أنظروا الى الجنرال، كيف ينتظر بإنضباط رغم أنه يحمل سلاحا ويمكنه تدبير إنقلاب حتى هنا في صف السكارى هذا. لكنه رجل عظيم، لا يهتم بإستثمار الملابس العسكرية التي يرتديها ليكون أفضل من الاخرين. رغم أنه حتى حين يخلع هذه الملابس العسكرية المتسخة ، سيكون أفضل حتى من أكثر السكارى ذكاء. إنه جنرال حقيقي لا ينقصه سوى جهاز تلفزيون يظهر فيه ليخاطب الناس ليصبح قائدا للثورة. لكنه الآن مشغول بالوقوف في صفوف الشراب. يريد أن يعيش في قاع المجتمع حتى يتعلم التواضع ومحبة الفقراء السكارى. يجب أن يكون قائد الثورة قريبا من الشعب الذي سيحمي الثورة من حركات التمرد، ومن إحتجاجات الشعب المتعجل الذي يريد خبزا لحظة إندلاع الثورة. يريد دواء حتى قبل أن يجلس قائد الثورة على كرسيه الوثير في القصر الجمهوري. حين تفرغ بائعة الخمور من استخدامه كمثال لتعليم السكاري الطيبين فوائد الانضباط، يكون هو قد وصل الى المقدمة وتسلم حصته من الشراب دون أن يحصل على قطرة شراب واحدة إضافية كقائد محتمل للثورة كما ترشحه بائعة الخمور. مثله مثل كل السكارى المغمورين ينساه الجميع مجرد مبارحته للبيت، لكن اللقب نفسه: سعادة الجنرال، ليس سيئا على كل حال. بعض التنبوءات تصدق، لا يجب التقليل من تنبوءات المرأة الكريمة لمجرد أنها تعمل بائعة للخمور الرديئة. لمجرد أن تضيف بعض الماء أحيانا للخمر حين يكون عدد الزبائن كبيرا والخمر أقل من المعدل اليومي. الماء ليس سيئا كما سبق أن صرّحت للجنرال: لن يجعلك ذلك مدمنا بأية حال، لا يدمن الناس على شرب الماء، رغم انهم يشعرون بالعطش دائما خاصة في فصل الصيف الطويل الحار. وبدلا من ذنوب شراب الخمر، تصبح أنت الشارب ضحية للغش! كما أن الخمر المغشوشة بالماء مفيدة للصحة، بعض الناس تأكل الخمور الجيدة أكبادهم حتى تتلاشى تماما، لكن الخمر المغشوشة لا تؤذي الكبد، لا يؤذي الماء الكبد!

الشئ الوحيد السئ في الأمر أنك تتبول كثيرا وأنت في كامل وعيك! بعض السكارى يتبولون في ملابسهم!، كان زوجي السابق يفعل ذلك كثيرا، كنت أرفعه من الفراش وأنظفه مثل طفل، وأقوم بتغيير وضع الفراش، لننام على الجانب الآخر الجاف، وفي اليوم التالي نعود للجانب الأول الذي يصبح جافا بفضل الشمس الحارقة التي نترك الفراش فيها طوال اليوم. ولولا ذلك لاختنقنا من النوم في مرحاض السكارى هذا! حتى حين لا يكون الجنرال موجودا، كانت المرأة الطيبة لا تلاحظ ذلك أحيانا، وتواصل توبيخها للسكارى، كأنه لا فرق في الواقع بين وجود الجنرال وغيابه، ما دام بإمكانها تخيل وجوده، يجب على الجنرال المنضبط أن يكون موجودا في صف الخمور في نفس موعده اليومي، والا فلن يستحق الترقية الاستثنائية. أنظروا الى الجنرال، يرتدي ملابسه الجميلة، رغم أنها متسخة قليلا بسبب صعوبة عمله، إنه يختبئ طوال الوقت في الخنادق، أو يعبر مستنقعات البعوض في فصل الخريف بحثا عن المتمردين الذين يريدون الاستيلاء على السلطة بالقوة. أنظروا إليه ملابسه متسخة لكن لا تفوح منها رائحة البول مثل ملابسكم، رغم أنه ضابط في الجيش وطبيعة عمله لا تعطيه وقتا للاستحمام، لكن رائحة جسده جيدة نسبيا، رجال الجيش يشتهرون بالعناية بنظافة اجسادهم وملابسهم، يشربون الخمر ولكن بطريقة عسكرية! لا يفهم السكارى كيف يمكن شراب الخمر بطريقة عسكرية. لكنهم يؤمّنون بتأثر واضح على كل كلام بائعة الخمور فهي الوحيدة في هذا العالم التي تحبهم!: تبيعهم بالدين. بعكس بائع الخبز وباعة الحبوب، وأصحاب المحلات التجارية الأخرى، يريدون مالا في الحال والا فلن يعطونك شيئا ولا حتى حبة قمح. لكن بائعة الخمر المغشوشة، تبيعهم الخمر، تبيعهم الحياة، ولا تطاردهم كثيرا حتى يدفعون ما عليهم من مال. لا أحد يسرق بائعة الخمور! يمكنك سرقة قطعة خبز اذا إنشغل بائع الخبز بالحديث في تليفونه المحمول أو ذهب لاحضار شئ ما! لكن لا يجب سرقة الخمور! من يسرق الخمور يصبح شخصا منبوذا، لا يحييه الناس في الطرقات، ويزفه الأطفال في الأزقة مثل المجانين، ويغنون له اغنية رائجة تتحدث عن شخص فقد عقله بسبب الحب، يعيش في الطرقات مع الكلاب الضالة. وما الداعي للسرقة إن كانت بائعة الخمور تعطيك ما تريد وتكتفي فقط بكتابة حسابك على الحائط! إقترح عليها بعض السكارى استخدام الورق للكتابة بدلا من الحائط الفضائحي الذي يستطيع الجميع قراءته! لكن المرأة الذكية واصلت استخدام الحائط! لن ينسى أحد دينه ولن ينساه الاخرون حين يكون معروضا على هذه الشاشة الطينية ليراه الجميع حتى المارة ممن لا يشربون الخمور! تقول انظروا الى الجنرال، يكتفي السكارى بالنظر الى الخلف، لا يوجد جنرال أو مارشال، لكنهم يصدقون أنه موجود وفي كامل إنضباطه، لأن بائعة الخمور لا يمكن ان

تكذب! لابد أن الجنرال موجود لكنه غير مرئي للسكارى والعامة. أو أنها ببصيرتها النافذة تراه قادما في طريقه من معسكر الجيش لشراء الخمر.

إستيقظ الرقيب عبد الحي فزعا بعد قليل، لبث دقائق قبل أن يستطيع تحديد مكانه، تمكن النوم منه لفترة قصيرة . نظر الى ساعته فوجد أنه لم يبق سوى حوالي نصف ساعة على موعد وصول فريق الاعدام. بدأ ينظر حواليه بسرعة، خيل له أنه سمع أثناء نومه القصير صوتا يشبه إرتطام شئ ما بالأرض. ربما خرج أحد روّاد الانداية أثناء نومه، قرر أن يقوم بتمشيط المنطقة بسرعة قبل أن يخرج شخص آخر. فجأة أشتم رائحة خمر قوية، عبر ساحة صغيرة خلف الغابة تنمو فيها أعشاب طويلة تكفي لاخفاء فيل بداخلها.اصطدمت قدمه فجأة بشئ، نظر فرأى شخصا نائما على وجهه من فرط السكر، لم يبذل أية جهد لايقاظه، حمله برفق على ظهره، حتى لا يستيقظ، كانت المسافة قد اصبحت بعيدة نوعا ما من المعسكر لكن طاقة الخوف جعلته يحمل الرجل دون ألم حتى وصل الى المعسكر، رغم رائحة الرجل التي أحرقت أنفه: خليط من رائحة العرقي ورائحة عرق الجسد والقئ والبراز. كان الرجل لا يزال غائبا تماما عن الوعي حين دفع به الى الزنزانة وأغلق الباب.

تظاهر أنه مشغول بالطبخ في قطيته حين جاء الجنود، أعطاهم مفتاح الزنزانة، سحبوا الرجل وتركوا له المفتاح في باب الزنزانة، لم تمض سوى دقائق قليلة قبل أن يسمع صوت زخات الرصاص ثم صوت محرك السيارة التي إبتعدت الى الطرف الآخر من المعسكر.

حين بدأ الليل يرخي سدوله، أخرج الرقيب عبد الحي بقية جركان العرقي وتجاهل عدة مرات صوت رنين التليفون، كان جالسا طوال الليل يشرب العرقي ويبكي بدموع غزيرة..

أحمد الملك

الميلاد 1967 أرقو شمال السودان

اصدارات:

الفرقة الموسيقية، رواية، دار جامعة الخرطوم للنشر 1991

عصافير آخر أيام الخريف، رواية، دار المكتبة الأكاديمية، الخرطوم 1996

الخريف ياتي مع صفاء، رواية، طبعة اولى 2003 المؤسسة العربية للدراسات والنشر، طبعة ثانية 2005 دار عزة للنشر . ترجمة فرنسية 2007 دار أكتس صد، ترجمة هولندية 2010 دار دي خوص.

بيت في جوبا: رواية، دار الحضارة 2010

نورا ذات الضفائر: رواية ن دار عزة للنشر 2006

ترجمات قصص قصيرة صدرت بالهولندية والفرنسية.

جائزة مهرجان صورة العالم في القصة القصيرة 2001 بمدينة خرونجن – هولندا.

للمراسلة:

ortoot@gmail.com